منهج الخطيب الشربيني
في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه
" نماذج تطبيقية "

إعداد الدكتور

محمد إبراهيم عبد الحليم محمد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات بني سويف – جامعة الأزهر – مصر

منهج الخطيب الشربيني في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه
(نماذج تطبيقية)

محمد إبراهيم عبد الحليم محمد
قسم التفسير وعلوم القرآن،شعبة أصول الدين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، بنات بني سويف، جامعة الأزهر.
البريد الالكتروني: mimohamed@iau.edu.sa

ملخص بحث

يهدف البحث إلى بيان أن تأويل الآيات الموهمة للتشبيه، تأويلاً يليق بجلال تعالى هو أحد مذهبي أهل السنة، وهو مذهب الجم الغفير من المفسرين، وأنه مذهب الأزهر الشريف. وبيان منهج الخطيب الشربيني في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه. وإظهار المنهج الأشعري بصورته الصحيحة، وأنه ليس بدعاً، وإنما هو امتداد لمذهب السلف الصالح ﷺ واعتمد البحث المنهج الاستقرائي، والتحليلي، والاستنباطي ، لينتج عنه أن النصوص الموهمة للتشبيه قضية متجددة الطرح، لها جذورها التاريخية، وحضورها المعاصر. التعلق بظواهر الآيات الموهمة للتشبيه، يوقع في التجسيم والتشبيه. مذهب أهل السنة وجوب صرف الآيات الموهمة للتشبيه عن ظواهرها، وعلى ذلك جل المفسرين. نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج الخلف في تأويل الآيات الموهمة للتشبيه، تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. وهو كذلك مذهب جل المفسرين. المنهج الأشعري ليس بدعاً، وإنما هو امتداد لمنهج السلف الصالح ﷺ. الأزهر الشريف هو حصن الدين المنيع على مر العصور، وقد واصل علماؤه منهج أعلام الأمة؛ من أهل السنة والجماعة، في إيضاح عقائد السلف، وتأييدها بالأدلة العقلية والنقلية، ودفع الشبه عنها بأسلوب يناسب العصر، وما فيه من التحديات. محاولة فرض الرأي الواحد على جميع الناس، خطر يؤدي إلى تمزيق الأمة.

الكلمات المفتاحية: منهج، آيات، التشبيه، تفسير، تأويل، تفويض، المجسمة، المشبهة.

Al-Khatib al-Shirbini Approach in Interpreting Verses of Resemblance Illusion
(Applied Models)

Mohamed Ibrahim Abdel Halim Mohamed
Department of Interpretation and Quranic Sciences, Division of Fundamentals of Religion, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Girls' Branch, Beni Suef, Al-Azhar University.
E-mail: mimohamed@iau.edu.sa

Abstract

This research aims to indicate that interpreting verses of resemblance illusion in a way appropriate for Allah Almighty Majesty is one of the two schools of thought of Sunnis, which is the school of thought of the majority of Quran interpreters and Al Azhar Al Sharif, introduce Al-Khatib al-Shirbini approach in interpreting verses of resemblance illusion, and indicate Ashʿarī theology in its proper perception to prove that it is not heresy, but a continuation of the schools of thought of righteous predecessors. The research applies the inductive, analytical and deductive approaches to conclude that the topic of verses of resemblance illusion is a matter of debate to date, which has its historical origins and contemporary presence. Focusing on superficial meanings of verses of resemblance illusion is reflected in embodiment and resemblance. Sunnis and the majority of Quran interpreters consider the necessity to distract verses of resemblance illusion from their superficial meanings. Al-Khatib al-Shirbini -may Allah have mercy on him- followed the descendants' approach in interpreting verses of resemblance illusion in a way appropriate for Allah Almighty Majesty, which is the school of thought of the majority of Quran interpreters. Ashʿarī theology is not heresy, but a continuation of the schools of thought of righteous predecessors. Al Azhar Al Sharif is the impenetrable fortress of the religion over the ages. Al Azhar Scholars followed the approach of the Nation's Scholars of the Followers of Al-Sunna and Al-Gamaa regarding clarification of predecessors' ideologies and thoughts, corroborated by reasonable and traditionally transmitted evidence, throwing suspicion off those ideologies in a manner appropriate for the contemporary era and its challenges. Hence, the attempt to impose a single opinion on all people is a risk leading to the nation's dismemberment.

Keywords: Approach, Verses, Resemblance, Interpretation, Empowerment, Embodied, Resembled.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه، واهتدى بهداه.

أما بعد،،،

فقد ورد في القرآن الكريم آيات يوهم ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه، واتصافه سبحانه ببعض صفات الحوادث. وقد تعلق قوم بظواهر تلك الآيات، حتى وقعوا في التجسيم والتشبيه، فقام علماء أهل السنة بإيضاح عقائد السلف، وتأييدها بالأدلة العقلية والنقلية، ودفع الشبه عنها. وقد اتفق أهل السنة –سلفاً وخلفاً– على صرف هذه الآيات عن ظواهرها، ووجوب تنزيهه تعالى عن مشابهة خلقه، فأما السلف فيكتفون بصرف هذه الآيات عن ظواهرها، والإيمان بها، وإمرارها–من غير تفسير– وتفويض المعنى المراد منها إلى الله تعالى. وأما الخلف فإنَّهم يؤولونها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى، وعلى ذلك جل المفسرين.

وقد ظل التعلق بظواهر النصوص مذهباً للبعض –يبدو من حين لآخر– إلا أن أصحابه –في هذا العصر– لم يكتفوا بتقرير رأيهم الأعرج، ومعتقدهم الفاسد، وإنما عملوا على إلباس الحق ثوب الباطل، وتزييف منهج السلف؛ بادعائهم أنَّ ما ذهبوا إليه هو مذهب السلف الصالح؛ من الصحابة والتابعين، وعملوا بكل الطرق على فرض هذا الرأي على جميع الناس، وبالغوا في ذلك، حتى رموا بعض المسلمين من أهل القبلة بالكفر والخروج عن الدين؛ مما أدى ذلك إلى تمزيق الأمة.

لكنَّ الأزهر الشريف –وهو حصن الدين المنيع على مر العصور– لم يقف مكتوف الأيدي، فتصدى أبناؤه لهذا الفكر، وواصل علماؤه منهج أعلام الأمة؛ من أهل السنة والجماعة، بأسلوب يناسب العصر، وما فيه من التحديات.

ولذلك فقد رأيت أنَّ الواجب يحتم عليَّ –وأنا واحد من أبناء تلك القلعة الشامخة– أن أشارك العلماء –وإن لم أكن منهم– هذا الدور، فاخترت هذا البحث؛ لأقوم من

خلاله بمشاركة العلماء في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على خصومهم، رداً علمياً عملياً، بعيداً عن التعصب، مرتكزاً على الأدلة الصحيحة، والبراهين الساطعة.

أهمية الموضوع:

وأهمية هذا الموضوع تكمن في أنَّه يتعلق بقضية متجددة الطرح، لها جذورها التاريخية، وحضورها المعاصر، وهي قضية هامة وخطيرة، من قضايا الفكر والثقافة الإسلامية على مر العصور، تتعلق هذه قضية بذات الله تعالى وصفاته، ودراستها من خلال القرآن الكريم، ومناهج المفسرين، وبيان مذهب أهل السنة؛ سلفاً وخلفاً في ذلك، والرد على المنحرفين؛ الذين رموا مخالفيهم من أهل القبلة بالكفر، والخروج عن الدين.

أسباب اختيار الموضوع:

وأما اختيار هذا الموضوع، فإنه يرجع إلى جملة من الأسباب؛ أهمها:

١- بيان عقيدة أهل السنة؛ من السلف والخلف في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه.

٢- بيان موقف سواد المفسرين الأعظم من تلك القضية.

٣- التأكيد على عراقة وأصالة مذهب الخلف في تأويل الآيات الموهمة للتشبيه.

٤-الرد على أصحاب الأفكار الفاسدة؛ ممن أنكر تأويل الآيات الموهمة للتشبيه.

٥- وقد اخترت تفسير الخطيب الشربيني؛ لأمرين. أولهما: أنه أحد علماء الأزهر العظام، فرأيه يعبر عن منهج الأزهر الشريف في تلك القضية. ثانيهما إنصاف الخطيب الشربيني، والدفاع عنه، وبيان أنه كان يسير على منهج الخلف في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه.

ويهدف البحث إلى ثلاثة أمور:

الأول: أن تأويل الآيات الموهمة للتشبيه، تأويلاً يليق بجلال تعالى هو أحد مذهبي أهل السنة، وهو مذهب الجم الغفير من المفسرين، وأنه مذهب الأزهر الشريف، والرد على من أنكر ذلك.

الثاني: بيان منهج الخطيب الشربيني في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه، وإنصافه والدفاع عنه.

الثالث: إظهار المنهج الأشعري بصورته الصحيحة، وأنه ليس بدعاً، وإنما هو امتداد لمذهب السلف الصالح ﷺ.

الدراسات السابقة:

وقد وقفت على جملة من الدراسات التي تتعلق بهذا الموضوع؛ منها:

أولاً: منهج الخطيب الشربيني في التفسير؛ رسالة ماجستير للباحث/ مسعود أحمد مسعود عيسى. الجامعة الأردنية، كلية الشريعة. ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م.

ثانياً: الخطيب الشربيني ومنهجه في التفسير؛ رسالة ماجستير للباحث/ ثقيل بن ساير بن زايد الشمري. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين. ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦م.

ثالثاً: العلامة الخطيب الشربيني ومنهجه في تفسير السراج المنير؛ رسالة ماجستير للباحثة وفاء سعداوي؛ جامعة الأزهر؛ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة. ١٤٢٨ هـ-٢٠٠٧م.

فهذه كلها دراسات عامة، في بيان منهج الخطيب الشربيني -رحمه الله- في التفسير. وأما هذه الدراسة فإنها دراسة استقصائية خاصة، وهي تمتاز ببيان منهج الخطيب الشربيني -رحمه الله- في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه، وتأييده بأقوال أشهر المفسرين، وإنصاف الخطيب الشربيني، والدفاع عنه، إلى جانب تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على مخالفيهم في تفسير هذه الآيات.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة. وتمهيد. وثلاثة مباحث. وخاتمة.

ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجي في كتابته. وقد أشرت في التمهيد إلى التعريف بالخطيب الشربيني وتفسيره، وبيان موقف العلماء من الآيات الموهمة للتشبيه. وذكرت في

المبحث الأول منهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسير الآيات التي توهم الحلول والتحيز. وذكرت في المبحث الثاني منهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسير الآيات التي توهم الجارحة. وذكرت في المبحث الثالث منهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسير الآيات التي توهم الانفعالات والأعراض النفسانية. ثم ذكرت في الخاتمة أهم النتائج والتوصيات المستخلصة من هذه الدراسة.

وقد اتبعت في كتابة هذا البحث المنهج الاستقرائي، والتحليلي، والاستنباطي.

والله أسأل التوفيق والسداد. وصل اللهم، وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. وسلم تسليماً كثيراً.

تمهيد

التعريف بالخطيب الشربيني:

الخطيب الشربيني: هو الإمام محمد بن أحمد الشربيني، الصوفي، القاهري، الفقيه، الشافعي، المفسر، المحدث. نشأ بشربين – إحدى مدن محافظة الدقهلية بمصرنا الحبيبة– وحفظ القرآن في صغره، وتلقى العلم على أكابر علماء عصره في الأزهر الشريف. وقد أجمع أهل مصر على صلاحه وزهده، ووصفوه بالعلم والعمل، والورع، وكثرة النّسك والعبادة.

تتلمذ الخطيب الشربيني –رحمه الله– على العديد من علماء عصره؛ من أمثال؛ الشيخ زكريا الأنصاري، العلامة أحمد البرلسي، الملقب بعميرة، النور المحلي، الشهاب الرملي، النّور الطهواني، الشمس الكردي، البدر المشهدي، الشيخ ناصر الدّين الطّبلاوي، وغيرهم. ولم تذكر المصادر أسماء تلاميذه، غير أنهم أشاروا إلى أن الذين أخذوا عنه خلائق. وذكر محب الدين الحموي أن ابنه عبد الرحمن، الفقيه، الشافعي أخذ عنه.

وكان –رحمه الله– شافعي المذهب، ينهج منهج الخلف من أهل السنة في أمور العقيدة. وقد جيز الخطيب الشربيني بالإفتاء والتدريس، فدرّس، وأفتى في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق لا يحصون. له شرح مناهج الدين في شعب الإيمان لأبي الحسين الحليمي الجرجاني، السراج المنير في التفسير، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع –في الفقه الشافعي– مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للنووي، شرح التنبه لأبي إسحاق الشيرازي، نور السجية في حل ألفاظ الأجرمية، فتح الخالق المالك في ألفاظ ألفية ابن مالك، شرح شواهد قطر الندى وبل الصدى، تقريرات على المطول للتفتازاني في البلاغة، وغير ذلك من المؤلفات العديدة. توفي –رحمه الله– سنة سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة النبوية المشرفة[1].

(١) ترجمته: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي ٩٢/١، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٥٦١/١٠، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٦٩/٨، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ١٨٧٥/٢، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي ١٦١/٤، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحب الدين الحموي ٣٧٨/٢.

التعريف بتفسير الخطيب الشربيني:

السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني للخطيب الشربيني، تفسير متوسط، ليس بالطويل، ولا القصير. وقد أشار –رحمه الله– إلى منهجه في التفسير، فذكر أنه اقتصر فيه على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية، وأن ما يذكره من القراءات فهو من السبع المشهورات. وأنه قد يذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مدراكها، أو لورودها ولكن بصيغة: قيل؛ ليعلم أن المرضى أولها، ثم قال: وقد تلقيت التفسير –بحمد الله– من تفاسير متعددة رواية، عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم، واشتهرت وانتشرت مآثرهم(١).

موقف العلماء من الآيات الموهمة للتشبيه:

ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة بعض النصوص التي يوهم ظاهرها اتصاف الله تعالى ببعض صفات خلقه، ومشابهته تعالى للحوادث؛ مثل الاستواء والفوقية واليد والعين والجنب والوجه والمجيء، والحب والكره، والرضا والسخط، وغير ذلك من الصفات التي لا نعلم عن حقائقها إلا أبعاضاً، أو أعراضاً جسمانية، أو وجدانية نفسية، محدثة، تشعر بالتشبيه والتجسيم. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وللناس فيها مذاهب.

المذهب الأول: مذهب المجسمة والمشبهة:

ذهب قوم إلى القول بإرادة الحقائق اللغوية، المفهومة بأعيانها من تلك الآيات، والتمسك بظواهر هذه النصوص، والجمود في الأخذ بها، مع طرح ما يقتضيه العقل، وعدم النظر إلى ما يترتب عليها من التشبيه والتجسيم؛ ويمثل هذا الاتجاه كل من المشبهة والمجسمة.

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب٣/١.

وقول المجسمة هذا مردود من وجهين: الأول: ثبت أن الله تعالى هو الواجب. والواجب ليس بجسم، فلا يتصف بشيء من الكيفيات المحسوسة بالحواس الظاهرة أو الباطنة؛ لأنها تخص الأجسام. الثاني: أن ما استدلوا به من النصوص، إنما هي ظنيات سمعية، يعارضها قطعيات عقلية، فيُقطع بأنها ليست على ظواهرها [1].

المذهب الثاني: مذهب أهل السنة:

إذا ورد في القرآن الكريم، أو السنة ما يشعر بإثبات الجهة، أو الجسمية، أو الجوارح، أو نحو ذلك لله تعالى، فإن أهل الحق وغيرهم –ما عدا المجسمة والمشبهة– قد اتفقوا على تأويل ذلك؛ ووجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره.

منهج مذهب أهل السنة في تفسير الآيات الموهمة للتشبيه:

السلف والخلف متفقون على وجوب صرف النصوص الموهمة للتشبيه عن ظاهرها، وتنزيهه سبحانه عما دلت عليه هذه النصوص بحسب ظاهرها؛ لأن الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. ولكنهم اختلفوا في تعيين المراد من هذه النصوص؛ فجمهور السلف على الإيمان بها، وإمرارها –من غير تفسير– وتفويض المعنى المراد منها إلى الله تعالى. وهذا ما يُعرف بالتأويل الإجمالي. وذهب الخلف إلى تأويل تلك النصوص، وتعيين المراد منها، وفق ما يليق بجلال الله تعالى[2].

منشأ الخلاف بين السلف والخلف:

ومنشأ الخلاف بين السلف والخلف يرجع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

(1) يراجع: الإرشاد إلى قواطع الأدلة لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ص ٤٤، ٤٥، دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي ٢/ ٦٢، المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي ص٢٧١، ٢٧٢، شرح المقاصد في علم الكلام لسعد الين التفتازاني ٦٦/٢، ٦٧، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص١٠٤.

(2) يراجع: المواقف ص ٢٧٢، ٢٧٣، شرح المقاصد ٦٧/٢، شرح جوهرة التوحيد ص١٠٤، مفاتيح الغيب للإمام الرازي ٢٦٩/١٤، لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن٢٠٨/٢/ ٢٠٩. الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي ٣/٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي١٦٩/٧.

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾ [آل عمران: ٧] فإن (الواو) في قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ يجوز أن تكون للعطف، ويجوز أن تكون للاستئناف.

فإذا كانت (الواو) عاطفة، يكون قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ معطوفاً على لفظ الجلالة، وتكون جملة ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ حالية. والمعنى: أنّ تأويل المتشابه يعلمه الله، ويعلمه الراسخون في العلم. وعلى ذلك طائفة من العلماء. وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد قال: يعلمون تأويله و﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ واختار هذا القول الإمام النووي[١].

وإذا كانت (الواو) للاستئناف، يكون الوقوف على ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ويكون الكلام قد تم على ذلك، وقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ مبتدأ، خبره جملة ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ والمعنى: أن المتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى. وإلى هذا ذهب قوم، ففسروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه[٢].

المذهب الثالث: الحنابلة المجسمة:

ذهب بعض الحنابلة إلى أنَّ مذهب السلف الصالح –في تلك الآيات– إثباتها؛ كما جاءت في الكتاب والسنة، مع اعتقاد ما دلت عليه بحسب ظاهرها. ونسبوا هذا القول –زوراً– إلى الإمام أحمد رحمه الله. وادعوا أن هذه الآيات من المحكم، وأنها ليست من المتشابه، وأن معانيها معلومة، يجب اعتقادها، وأما كيفيتها؛ فهي مجهولة، لا يعلمها إلا الله – تعالى– واستدلوا على ذلك بقول الإمام مالك بن أنس ﷺ لمَّا سُئل عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: "الاستواء

(١) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي ٢١٨/١٦ باب النهي عن اتباع مشابه القرآن.
(٢) يراجع: المواقف ص ٢٧٢، ٢٧٣، شرح المقاصد ٦٦/٢، ٦٧، تفسير الطبري ٢٠٣/٦، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي١٥٢/٢. تفسير الماتريدي ٣١٢/٢، النكت والعيون للماوردي ٣٧٢/١، تفسير الراغب الأصفهاني٤٢٤/٢، معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٤١٢/١، تفسير القرطبي ١٦/٤، لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٢٧/٢، السراج المنير ١٩٦/١، ١٩٧، تفسير البيضاوي ٦/٢.

معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" وجعلوا قول الإمام مالك –في الاستواء– قاعدة في جميع الصفات. وزعموا أن هذا هو قول أهل السنة والجماعة قاطبة، وأنهم الفرقة الناجية. وقالوا: إن من نسب إلى السلف أنهم يفوضون معاني الأسماء والصفات، ويجعلون نصوصها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه؛ فقد كذب وافترى عليهم.

الرد على الحنابلة المجسمة:

المعروف –عند جمهور العلماء– أن منهج السلف الصالح ﷺ –في الآيات الموهمة للتشبيه– هو الإيمان بها، وأمرارها –من غير تفسير– وتفويض المعنى المراد منها إلى الله تعالى، مع تنزيهه سبحانه عن حقيقتها؛ فعقيدة السلف الصالح في الآيات الموهمة للتشبيه التفويض وليس الإثبات؛ يقول ابن الجوزي والخطيب الشربيني: "وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية"[1]. وقد روى عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة –في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة–: "اقرءوها، كما جاءت، بلا كيف"[2].

(1) زاد المسير ١٢٨/٢، السراج المنير ١/ ٤٨٠.
(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ١٩٢/٢، تفسير الخازن ٢٠٨/٢.

المبحث الأول

منهج الخطيب الشربيني

في تفسير الآيات الموهمة للحلول والتحيز

الاستواء على العرش:

أخبر الله سبحانه في آيات عديدة من القرآن الكريم أنه استوى على العرش؛ فقال سبحانه:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه: ٥] وغير ذلك من الآيات.

ولما كان ظاهر تلك الآيات يوهم التجسيم، والتحيز والحلول في المكان، وهو محال على الله تعالى –لأن ذلك من صفات الحوادث، والله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث– فقد اتفق أهل السنة –سلفاً وخلفاً– على تأويل هذه الآيات، ووجوب صرفها عن معناها الظاهر؛ فأمَّا السلف، فذهبوا إلى الإيمان بها، وإمرارها –من غير تفسير– وتفويض الله تعالى في المعنى المراد منها، مع تنزيهه تعالى عن الاستقرار والتمكن. وذهب الخلف إلى تعيين المعنى المراد منها، وتأويلها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. وقد جمع الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآيات بين مذهب السلف والخلف؛ من أهل السنة والجماعة، إلا أن الظاهر من تفسيره أنَّه كان يرجح مذهب الخلف؛ فقد فسر معظم هذه الآيات على مذهب الخلف، وسلك مسلك الأشاعرة في تأويل أكثرها، وذلك على النحو التالي:

أولاً: ما ذكر فيه مذهب السلف والخلف:

ذكر –رحمه الله– مذهب السلف والخلف –في تفسير الاستواء على العرش– في موضعين:

الموضع الأول: ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] **حيث قال –رحمه الله–:**"﴿ ثُمَّ

﴿ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾: أي: استوى أمره[١]. وقال أهل السنة: الاستواء على العرش: صفة الله بلا كيف، يجب الإيمان به، ونكل فيه العلم إلى الله تعالى. والمعنى: أنّ له سبحانه وتعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه، منزه عن الاستقرار والتمكن"[٢].

فقوله: "أي: استوى أمره" هو قول الخلف. وقوله: "الاستواء على العرش: صفة الله بلا كيف؛ يجب الإيمان به، ونكل فيه العلم إلى الله تعالى.... هو مذهب السلف.

والخطيب الشربيني –وإن ذكر مذهب السلف والخلف في تفسير الآية– لكن الظاهر أنه اختار مذهب الخلف؛ لأنه قال: "﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾: أي: استوى أمره". فهذا رأيه في تفسير الآية، وهو رأي قائم على التأويل، كما هو مذهب الخلف، ثم نقل –رحمه الله– القول الآخر في تفسير الآية، وهو مذهب السلف.

الموضع الثاني: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ ﴾ [السجدة: ٤]. قال الخطيب الشربيني–رحمه الله–: "﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ استواء يليق به تعالى[٣]، لم تعهد[٤] وأمثله؛ وهو أنه تعالى أخذ في تدبيره، وتدبير ما حواه بنفسه، لا شريك له، ولا نائب فيه، ولا وزير؛ كما تعهدون من ملوك الدنيا، إذا امتنعت ممالكهم، وتباعدت أطرافها، وتناءت أقطارها"[٥].

(١) تفسير البيضاوي ١٦/٣، النكت والعيون للماوردي ٢٢٩/٢، بحر العلوم للسمرقندي ٥٢١/١، فالكلام على تقدير حذف مضاف، هو الفاعل؛ أي استوى أمره. ولا يضر حذف الفاعل، إذا قام ما أضيف إليه مقامه. روح المعاني ٤/ ٣٧٥.

(٢) السراج المنير ٤٨٩/١، وينظر: تفسير البيضاوي ٣١٦، تفسير البغوي ١٩٧/٢ تفسير ابن كثير ٤٢٦/٣، تفسير الخازن٢٠٧/٢، تفسير الجلالين ص٢٢٦، تفسير أبي السعود ١١٨/٤، فتح القدير للشوكاني ٢٤٠/٢.

(٣) تفسير الجلالين ص٥٤٥.

(٤) أي أنه ليس كاستواء المخلوقين.

(٥) السراج المنير٢٠٣/٣.

فقوله: "استواء يليق به تعالى" مذهب السلف. وقوله: "وأمثله... الخ" مذهب الخلف.

ومع أن الشربيني ذكر رأي السلف والخلف هنا، لكنَّ الظاهر أنه يرجح رأي الخلف، والدليل على ذلك: قوله في تفسير الآية التي بعدها: "ولما نفى أن يكون له وزيرٌ أو شريكٌ في الخلق، ذكر كيف يفعل في هذا الملك العظيم، الذي أبدعه، فقال -مستأنفاً، مفسراً للمراد بالاستواء-: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [السجدة: ٥] أي: كل أمر هذا العالم؛ بأن يفعل في ذلك فعل الناظر في أدباره لإتقان خواتمه ولوازمه، كما نظر في إقباله لأحكام فواتحه وعوازمه، لا يكل شيئاً منه إلى أحد من خلقه"(١).

وذلك بناء على ما ذهب إليه القفال وغيره؛ من أن العرش هنا كناية عن الملك يقال: ثل عرشه؛ أي: انتقض ملكه وفسد. وإذا استقام له ملكه، واطراد أمره، وحكمه، قالوا: استوى على عرشه، واستقر على سرير ملكه؛ قال الإمام الرازي: "والذي قاله حق وصدق وصواب، فكذا هاهنا يذكر الاستواء على العرش؛ والمراد: نفاذ القدرة، وجريان المشيئة، واستقامة الملك، لكنَّه أخرج ذلك على الوجه الذي ألفه الناس من ملوكهم، واستقر في قلوبهم، إلا أن كل ذلك مشروط بنفي التشبيه. قيل: ويدل على صحة ذلك قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾ [يونس: ٣] ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾ جرى مجرى التفسير لقوله: ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾. فكان قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ أي: بعد أن خلقها، استوى على عرش الملك والجلال"(٢).

ثانياً: ما اقتصر فيه على مذهب الخلف:

اقتصر الخطيب الشربيني -رحمه الله- على مذهب الخلف في تفسير الاستواء على العرش في العديد من الآيات، ومن ذلك:

(١) السراج المنير٣/٢٠٣.
(٢) مفاتيح الغيب ١٤/ ٢٦٩، ٢٧٠، بتصرف، روح المعاني٤/٣٧٥.

الموضع الأول: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [يونس: ٣] قال الخطيب الشربيني–رحمه الله–: " ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: عمل في تدبيره، وإتقان ما فيه، وإحكامه عمل المعتني بذلك﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ المتقدّم وصفه في الأعراف بالعظمة. وليست (ثم) للترتيب، بل كناية عن علوِّ الرتبة، وبعد منازلها، ثم بيّن ذلك الاستواء بقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ كله، فلا يخفى عليه عاقبة أمر من الأمور؛ لأنَّ التدبير أعدل أحوال الملك، فالاستواء كناية عنه"(١).

الموضع الثاني: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾ [الرعد: ٢] قال الخطيب الشربيني–رحمه الله–: قوله تعالى: "﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة؛ أي: أنّ من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره، وفي الاحتياج إليه"(٢).

ثالثاً: ما اقتصر فيه على مذهب السلف:

اقتصر الخطيب الشربيني –رحمه الله– على مذهب السلف في –تفسير الاستواء على العرش– في موضع واحد من تفسيره: وهو ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. قال الخطيب–رحمه الله–: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾

(١) السراج المنير ٣/٢، ٤. فالكلام -كما سبق ذكره- كناية عن الملك؛ لما كان الاستواء على العرش -وهو سرير الملك- مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش؛ يريدون: ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة. وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى، ومساواته ملك، في مؤدّاه، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر. ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية. والمراد بذلك الملك والسلطان. وهو اختار كثير من الخلف. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٣/ ٥٢، روح المعاني ٦٣/٦.

(٢) السراج المنير ١٤٤/٢. فالكلام على سبيل الاستعارة التمثيلية للحفظ والتدبير. روح المعاني٨٥/٧.

وهو سرير الملك ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: استواء يليق به[١] فإنَّه سبحانه وتعالى كان، ولا عرش، ولا مكان، وإذا خلق الله الخلق لا يحتاج إلى مكان، فهو بالصفة التي كان لم يزل عليها"[٢].

الاستواء إلى السماء:

اقتصر الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسير الاستواء إلى السماء على مذهب الخلف، وذلك في موضعين من تفسيره:

الموضع الأول: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٩] قال الخطيب الشربيني: "﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: قصد إلى خلقها بإرادته. وأصل الاستواء طلب السواء. وإطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء، ولا يمكن حمله على الله تعالى؛ لأنه من خوّاص الأجسام[٣]. وقيل: استوى: استولى؛ كما قيل:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق"[٤].

الموضع الثاني: ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] يقول –رحمه الله–: " ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ أي: قصد قصداً هو القصد، منتهياً قصده ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ ﴾ أي: والحال أنها ﴿ دُخَانٞ ﴾"[٥].

---

(١) تفسير الجلالين ص ٤٠٦.
(٢) السراج المنير٤٤٩/٢.
(٣) تفسير البيضاوي٦٦/١.
(٤) السراج المنير٤٣/١.
(٥) السراج المنير٥٠٧/٣، وينظر: النكت والعيون ١٧٢/٥، التفسير الوسيط للواحدي٢٧/٤، تفسير البغوي ١٢٦/٤، تفسير القرطبي ٣٤٣/١٥، تفسير البيضاوي ٥/ ٦٧، التسهيل في علوم التنزيل للكلبي٢٨٣/٢، البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٨٨/٩، تفسير الجلالين ص٦٣١، تفسير أبي السعود ٥/٨، روح المعاني ٣٥٥/١٢.

ذكر الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسير الاستواء إلى السماء، قولين؛ على مذهب الخلف: القول الأول: أن الاستواء بمعنى القصد إلى خلقها. وهذا قول الفراء وابن كيسان وجمهور المفسرين. والمعنى: أنه قصد إليها بإرادته، قصداً سوياً، بلا صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه؛ من قولهم: استوى إليه– كالسهم المرسل– إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء. القول الثاني: أن الاستواء بمعنى الاستيلاء والغلبة(١).

ورجَّحَ جمهور المفسرين القول الأول؛ لأن (اسْتَوَى) متى عدي بـ (على) اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] وإذا عدّي بـ (إلى) اقتضى معنى الانتهاء إليه، إمّا بالذّات، أو بالتّدبير، وعلى الثاني قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ ﴾ [فصلت: ١١] وإنما ضعفوا القول الثاني –وإن كان مقبولاً في الاستواء على العرش– لأنه –هنا– خلاف الظاهر؛ لاقتضائه كون (إلَى) بمعنى (على). يقول الحافظ ابن كثير "والاستواء هاهنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ (إلى)"(٢).

الرد على المخالفين:

كانت للخطيب الشربيني –رحمه الله تعالى– شخصيته المستقلة، وآراؤه التي جهر بها، وقد كانت له ردوده على بعض المفسرين في تفسير الاستواء:

الرد على تفسير الاستواء بالاستقرار:

تفسير الاستواء بالاستقرار، أو الجلوس رواه البيهقي في كتابه: الأسماء والصفات

(١) الوسيط للواحدي ١١٢/١، تفسير البغوي١٠١/١، الكشاف١/ ١٢٣، النكت والعيون ٤٩/١، تأويلات أهل السنة ٤١٠/١، المحرر الوجيز ١١٥/١، تفسير القرطبي ٢٥٥/١، البحر المحيط ٢١٧/١، تفسير النسفي ٧٦/١، التسهيل ٧٨/١، تفسير الخازن ٣٤/١، تفسير أبي السعود ٧٨/١، تفسير الجلالين ص٨، روح المعاني ٢١٧/١، ٢١٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٣٩، ٤٤٠، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي ٢/ ١٠٧، تفسير البيضاوي٦٦/١، تفسير ابن كثير ٢١٣/١، حاشيه الشهاب٢/ ١١٣، روح المعاني١/ ٢١٨، ٨٥/٢، ٨٦، ٦٢/٦.

عن الكلبي، ومقاتل بروايات ضعفها كلها. ورُوي هذا القول عن ابن عباس برواية وصفها البيهقي بأنها منكرة. قال الحافظ السيوطي: "وهذا إن صح يحتاج إلى تأويل، فإن الاستقرار يشعر بالتجسيم"(١).

وهو تفسير الحنابلة المجسمة، وأول من فسره بذلك ابن حامد الوراق، ونسبه زوراً إلى الإمام أحمد. وقد أنكر أئمة الحنابلة على ابن حامد هذا القول، فرده ابن عقيل وابن الجوزي وابن حمدان وغيرهم، وذموه، وفيه قال التميمي: "لقد شان المذهب شيناً لا يغسل إلى يوم القيامة"(٢).

وقد أنكر الخطيب الشربيني –رحمه الله– تفسير الاستواء بالاستقرار، لأنَّه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث، ويقتضي التركيب. وكل ذلك على الله محال، فقال –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٩]: "﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي: شرع في التدبير لهذا الملك الذي اخترعه وأوجده، ولا يجوز أن يفسر بالاستقرار، لأنَّه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث، ويقتضي التركيب. وكل ذلك على الله محال"(٣).

والأمر كما قال الشربيني –رحمه الله– فتفسير الاستواء بالاستقرار مردود؛ لأن استقراره على العرش يستلزم القول بالتجسيم والتحيز والحلول في المكان. وكل ذلك محال على الله؛ لأنه من صفات الحوادث. كما يلزم منه أن يكون تعالى متناهياً من الجانب الذي يلي العرش، ولو كان كذلك لكان محدثاً؛ أو أن يكون غير متناه من كل الجهات، أو أن يكون متناهياً من بعض الجهات دون البعض. والكل باطل؛ ويقول

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ٣١١/٢، باب ما جاء في قول الله ﷻ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ تفسير البغوي ٢/ ١٩٧، تفسير الخازن ٢٠٧/٢، الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ٤/ ٢٣٨، غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢٤٦/٣، الإتقان في علوم القرآن ١٦/٢، روح المعاني ٣٧٤/٤، ٣٢.
(٢) دفع شبهة التشبيه ص ٩، نهاية المبتدئين ص ٣٢.
(٣) السراج المنير ٦٦٩/٢.

إمام الحرمين في الإرشاد:" ثم الاستواء بمعنى الاستقرار بالذات، ينبئ عن اضطراب، واعوجاج سابق، والتزام ذلك كفر "(١).

ما يشعر بالفوقية:

ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي يوهم ظاهرها اتصاف الله بالفوقية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقد اتفق أهل السنة؛ من السلف والخلف على أن الفوقية في الآيات ليست على حقيقتها، فيجب صرفها عن ظاهرها، وتنزيهه تعالى عما يدل عليه حقيقة اللفظ؛ فذهب السلف، إلى الإيمان بها، وإمرارها –من غير تفسير– وتفويض الله تعالى في المراد منها. وذهب الخلف إلى تأويلاها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. وقد سلك الخطيب الشربيني –رحمه الله– مسلك الخلف في تأويل الفوقية، وجعلها كناية عن القهر والعلو بالغلبة والقدرة. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] –:" ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ ﴾ أي: القادر الذي لا يعجزه شيء، مستعلياً ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ فهم مقهورون تحت قدرته. وكل من قهر شيئاً، فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة"(٢).

فهو كناية عن القهر والعلو بالغلبة والقدرة. وقيل: إنه استعارة تمثيلية. وقيل: إن فَوْقَ زائدة. وصُحح زيادتها –وإن كانت اسماً– كونها بمعنى (على)(٣).

النموذج الثاني: ما ذكره –في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠] –: "﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ أي: الموجد لهم المدبر لأمورهم

(١) مفاتيح الغيب ٢٥٨/١٤، تفسير البيضاوي ٢٤٦/٣، الإرشاد إلى قواطع الأدلة ص ٤٤.
(٢) السراج المنير ٤١٤/١، وينظر: تفسير الخازن ١٠٣/٢، تفسير القرطبي ٣٩٩/٦، روح المعاني١٠٨/٤.
(٣) الكشاف ١٠/٢، حاشية الشهاب ٣٤/٤، روح المعاني١٠٨/٤.

المحسن إليهم خوفاً مبتدأ ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ إشارة إلى علو الخوف عليهم، وغلبته لهم[١]، أو أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم[٢] أو يخافونه، وهو فوقهم بالقهر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]"[٣].

وبهذه الوجوه يبطل قول المشبهة أن الإله –تعالى– فوقهم بالذات، مختص بالجهة، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً؛ إذ لو كان سبحانه فوق العالم، لكان جسماً، متجزأ، متحيزاً، ولو كان كذلك لكان حادثاً. وذلك باطل. لو كان الله في مكان للزم قدم المكان. ولا قديم سوى الله[٤].

ما يشعر بالمعية:

نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج الخلف في تأويل الآيات التي تشعر بمعية الله تعالى، ومصاحبته. والتي يوهم ظاهرها التجسيم، والتحيز والحلول. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: ما ذكره –في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا

(١) تفسير السمرقندي ٢٧٦/٢، تفسير الثعلبي ٢١/٦، النكت والعيون ١٩٢/٣، التفسير الوسيط للواحدي ٦٥/٣، المحرر الوجيز ٣٩٩/٣، زاد المسير ٥٦٤/٢، تفسير الزمخشري ٦١٠/٢، مفاتيح الغيب ٢١٨/٢٠، تفسير القرطبي ١١٣/١٠، تفسير البيضاوي ٢٢٩/٢، تفسير النسفي ٢١٦/٢. فـ ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ متعلق بـ ﴿ يَخَافُونَ ﴾ وخوف ربهم؛ كناية عن خوف عذابه. حاشية الشهاب ٣٣٧/٥، روح المعاني ٣٩٦/٧.

(٢) فهو على تقدير حذف مضاف؛ أي: يخافون عذاب ربهم؛ لأن العذاب ينزل من السماء. أو قدرة ربهم - التي هي فوق قدرتهم، وهي في جميع الجهات- أو عقاب ربهم؛ لأن أكثر ما يأتي العقاب المهلك من فوق. تفسير الثعلبي ٢١/٦، النكت والعيون ١٩٢/٣، التفسير الوسيط للواحدي ٦٥/٣

(٣) السراج المنير ٤١٤/١، وينظر: النكت والعيون ١٩٢/٣، التفسير الوسيط للواحدي ٦٥/٣، تفسير البغوي ٨٢/٣، المحرر الوجيز ٣٩٩/٣، زاد المسير ٥٦٤/٢، تفسير الزمخشري ٦١٠/٢، مفاتيح الغيب ٢١٨/٢٠، تفسير القرطبي ١١٣/١٠، تفسير البيضاوي ٢٢٩/٢، تفسير النسفي ٢١٦/٢، تفسير الخازن ٨٠/٣، تفسير أبي السعود ٥/ ١١٩، فـ﴿ مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ أي: كائناً من فوقهم؛ ومعنى كونه سبحانه فوقهم: قهره وغلبته؛ لأن الفوقية المكانية مستحيلة بالنسبة إليه تعالى. حاشية الشهاب ٣٣٧/٥، روح المعاني ٣٩٦/٧.

(٤) المواقف ص ٢٦٩ - ٢٧١. مفاتيح الغيب ٤٩٥/١٢، ٤٩٦.

يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨]-:" ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ بعلمه، لا يخفى عليه سرهم"(١).

النموذج الثاني: ما ذكره -في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المائدة: ١٢] "﴿ وَقَالَ ﴾ لهم ﴿ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي: بالعون والنصرة"(٢).

وبهذا نهج الخطيب الشربيني -رحمه الله- منهج جمهور المفسرين في تأويل المعية؛ إما بالعلم، وإما بالعون والنصرة، وإما بالحفظ والنصرة، وإما بالقدرة، وإنكار اتصاله بالعالم، أو انفصاله عنه بغيبة أو مسافة؛ يقول الإمام الرازي: "فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز، فإذن قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ لا بد فيه من التأويل، وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع"(٣).

ما يشعر بالمجيئ والإتيان:

نهج الخطيب الشربيني -رحمه الله- منهج الخلف في تفسير الآيات التي تدل على مجيء الله تعالى وإتيانه، والتي يوهم ظاهرها بالتجسيم، والتحيز والحلول. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ

(١) السراج المنير ٣٣١/١، وينظر: التفسير الوسيط للواحدي١١٢/٢، الكشاف ٥٦٣/١، مفاتيح الغيب٢١٤/١١، تفسير القرطبي ٣٧٩/٥، مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣٩٤/١، تفسير الخازن ٤٢٥/١، تفسير الجلالين ص ١٢١، تفسير أبي السعود ٢٢٩/٢، روح المعاني ٣/ ١٥١.

(٢) السراج المنير ٣٦١/١. وينظر: تأويلات أهل السنة ٤٨٠/٣، التفسير الوسيط للواحدي١٦٦/٢، تفسير البغوي ٣٠/٢، الكشاف ٦١٥/١، المحرر الوجيز ١٦٨/٢، زاد المسير ٥٢٧/١، تفسير القرطبي ١١٣/٦، تفسير البيضاوي ١١٩/٢، تفسير النسفي ٤٣٣/١، تفسير ابن كثير ٦٦/٣، تفسير الجلالين ص ١٣٨، تفسير أبي السعود ١٥/٣، روح المعاني ٣/ ٢٦٠.

(٣) مفاتيح الغيب ٤٤٩/٢٩.

فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] حيث قال –رحمه الله–: "قوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام في معنى النفي أي: ما ينظرون ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أمره، أو بأسه[١]؛ كقوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ ﴾ [النحل: ٣٣] أي: عذابه، وقوله تعالى: ﴿ جَآءَهُم بَأۡسُنَا ﴾ [الأنعام: ٤٣] أو ﴿ يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ببأسه؛ فحذف المأتيّ به، للدلالة عليه بقوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[البقرة: ٢٠٩] "[٢].

النموذج الثاني: ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ [الفجر: ٢٢] حيث قال –رحمه الله–: "قال الحسن: أمره وقضاؤه"[٣].

نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج جمهور المفسرين في تأويل المجيئ والإتيان، فذكر رأيين، كلاهما قائم على التأويل، وفق منهج الخلف:

الرأي الأول: أن المراد مجيئ أمره، أو بأسه، أو قضاؤه؛ فالكلام –على ذلك– من قبيل الإسناد المجازي، على تقدير حذف مضاف –هو الفاعل– وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو مجاز مشهور. يقال: ضرب الأمير فلاناً، وصلبه، وأعطاه. والمراد أنه أمر بذلك، لا أنه تولى ذلك العمل بنفسه. وقد وردت أقوال أخرى في تقدير المضاف المحذوف، فعن الإمام أحمد –رحمه الله–: قدرته وأمره[٤]. وقيل: عقابه أو عذابه. وقيل: قهر الله وعذابه[٥].

الرأي الثاني: أن المراد: إتيانه تعالى ببأسه؛ فالكلام على معناه الحقيقي، والمفعول محذوف؛ وحذف المأتي به؛ للدلالة عليه بقوله سبحانه–في الآية السابقة–:

(١) قال أبو حيان: "والتقدير: أمر الله، بمعنى: ما يفعله الله بهم، لا الأمر الذي مقابله النهي" البحر المحيط٣٤٣/٢.
(٢) السراج المنير١٣٦/١.
(٣) السراج المنير ٥٣٥/٤.
(٤) زاد المسير١٧٤/١.
(٥) التفسير الوسيط للواحدي ٣١٣/١ تفسير الماتريدي ١٠٤/٢، الكشاف٢٥٣/١، تفسير القرطبي٢٥/٣، تفسير البيضاوي ١٣٤/١، تفسير النسفي ١٧٦/١، البحر المحيط ٣٤٣/٢، تفسير الجلالين ٤٤/١، روح المعاني٤٩٣/١.

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن العزة والحكمة تدل على الانتقام بحق. أو حذف المفعول للتهويل عليهم، إذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل في باب الوعيد، وإذا لم يذكر كان أبلغ. وقد وردت أقوال أخر في تقدير المفعول المحذوف، فقيل: بأمره. وقال الإمام القرطبي: "بما وعدهم من الحساب والعذاب[١].

وقيل: يحتمل أن تكون (في) بمعنى الباء؛ لأن بعض الحروف يقوم مقام بعض، فيكون المعنى: هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة، والمراد العذاب الذي يأتي من الغمام مع الملائكة[٢]. وقيل: هو كنايةً عن الانتقام؛ إذ الإتيان يمتنعُ إسنادُه إلى الله تعالى حقيقةً[٣].

فبطل بهذه التأويلات حمل المشبهة والمجسمة مجيئ الله تعالى وإتيانه على حقيقته؛ لأن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب فهو جسم، حادث، متناه، متحيز، محدود[٤].

ما يشعر بالقرب:

نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله تعالى– منهج الخلف في تفسير الآيات التي تشعر بقرب الرب سبحانه من خلقه، فبين أنه ليس المراد منه القريب بالجهة والمكان، وإنما المراد منه القرب بالعلم والحفظ. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]: " ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ أي: فقل لهم إني قريب. وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد،

(١) التفسير الوسيط للواحدي ٣١٣/١ تفسير الماتريدي ١٠٤/٢، الكشاف٢٥٣/١، مفاتيح الغيب٣٥٨/٥، تفسير القرطبي٢٥/٣، تفسير البيضاوي ١٣٤/١، تفسير النسفي ١٧٦/١، البحر المحيط ٣٤٣/٢، الدر المصون٣٦٣/٢، تفسير النيسابوري٥٨٠/١، لباب التأويل١٤١/١، تفسير الجلالين ٤٤/١، تفسير أبي السعود ٢١٢/١، روح المعاني٤٩٣/١.

(٢) تفسير الماتريدي ١٠٤/٢، لباب التأويل١٤١/١.

(٣) الدر المصون ٣٦٣/٢.

(٤) يراجع: مفاتيح الغيب ٣٥٦/٥، ٣٥٧.

وأقوالهم، واطلاعه على أحوالهم، بحال من قرب مكانه منهم. ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]"(١).

النموذج الثاني: ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] "﴿ وَنَحْنُ ﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي: قرب علم وشهود، من غير مسافة" (٢).

فليس القرب في الآيات مراداً به القرب المكاني، وإنما هو –كما يقول العلامة الألوسي–: " استعارة لعلمه تعالى بأفعال العباد وأقوالهم، واطلاعه على سائر أحوالهم" إذ لو كان ذلك، لكان –سبحانه– جسماً، حادثاً، متناهياً، متحيزاً، محدوداً، مفتقراً إلى غيره، فثبت أنه تعالى يمتنع أن يكون في المكان، فلا يكون قربه بالمكان؛ يقول الإمام الرازي–في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾–: "وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القرب المذكور في هذه الآية ليس قرباً بالجهة؛ وذلك لأنه تعالى لو كان في المكان لما كان قريباً من الكل، بل كان يكون قريباً من حملة العرش وبعيداً من غيرهم، ولكان إذا كان قريباً من زيد الذي هو بالمشرق كان بعيداً من عمرو الذي هو بالمغرب، فلما دلت الآية على كونه تعالى قريباً من الكل، علمنا أن القرب المذكور في هذه الآية ليس قرباً بحسب الجهة. ولما بطل أن يكون المراد منه القرب بالجهة، ثبت أن المراد منه القرب بمعنى أنه تعالى يسمع دعاءهم، ويرى تضرعهم، أو المراد من هذا القرب: العلم والحفظ"(٣).

رؤية الله تعالى:

نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج أهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى

(١) السراج المنير١٢٢/١، وينظر: الكشاف٢٢٨/١، تفسير البيضاوي ١٢٥/١، تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٠. يراجع: التفسير الوسيط للواحدي ٢٨٤/١، تفسير البغوي ٢٢٥/١، تفسير القرطبي ٢/ ٣٠٨، تفسير النسفي ١٦٠/١، تفسير الخازن ١١٥/١، تفسير الجلالين ص ٣٨،

(٢) السراج المنير ٨٤/٤.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٦١/٥، روح المعاني٤٦٠/١.

في الآخرة، وإقامة الأدلة على ذلك، والرد على مخالفيهم. والنماذج على ذلك عديدة.

النموذج الأول: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. قال الخطيب الشربيني –رحمه الله–: "وتمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع –وهم الخوارج والمعتزلة، وبعض المرجئة– وقالوا: إنّ الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه، وإن رؤيته مستحيلة عقلاً؛ لأنّ الله تعالى أخبر أنّ الأبصار لا تدركه. وإدراك البصر: عبارة عن الرؤية؛ إذ لا فرق بين قولك: أدركته ببصري، ورأيته ببصري، فثبت بذلك أنَّ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بمعنى لا تراه الأبصار. وهذا يفيد العموم.

ومذهب أهل السنة: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وفي الجنة، واستدلوا لمذهبهم بأشياء من الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، ومن بعدهم من السلف.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [القيامة] ففي هذه الآية دليل على أنّ المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة. وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ﴾ [المطففين] قال الشافعي –رضي الله تعالى عنه–: حجب قوماً بالمعصية –وهي الكفر– فثبت أنّ قوماً يرونه بالطاعة –وهي الإيمان– وقال مالك –رضي الله تعالى عنه–: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله تعالى الكفار بالحجاب. وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ [يونس: ٢٦] وهذه الزيادة مفسرة بالنظر إلى الله تعالى يوم القيامة(١).

ومن السنة ما روي **عَنْ جَرِيرٍ بن عبد الله البجلي –رضي الله تعالى عنه– قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فنظر إلى القمر لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عياناً كَمَا تَرَوْنَ هذا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صلاة قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غروبها فافعلوا»**

(١) تفسير البغوي ١٤٨/٢.

ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠] (١). ومنها: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ لهم رَسُولُ اللهِ ﷺ «هَلْ تُضَامُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» أي: هَلْ تَشُكُّونَ قَالُوا: لَا، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ»(٢). وعَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكُلُّنَا يَرَى رَبَّهُ مُخْلِيًا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قال: «نعم» قُلتُ: وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: «يَا أَبَا رَزِينٍ، أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، مُخْلِيًا بِهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَاللهُ أَعْظَمُ إنما هو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ –أي: القمر– فَاللَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ»(٣).

واحتج أهل السنة –أيضاً– على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقول كليم الله موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إذ لا يسأل نبيّ ما لا يجوز، أو يمتنع. وقد علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل، بقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] واستقرار الجبل جائز. والمعلق على الجائز جائز.

وأمّا قول المتمسكين بظاهر الآية، وإنّ الإدراك بمعنى الرؤية، فممنوع؛ لأنّ الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء، والإحاطة به. والرؤية المعاينة، وقد تكون المعاينة بلا إدراك؛ قال الله تعالى –في قصة موسى–: ﴿ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى، ولم يدركوهم، فنفى موسى عليه السلام الإدراك مع ثبوت الرؤية، فالله تعالى يصح أن يُرى من غير إدراك ولا إحاطة، كما يُعرف في الدنيا ولا يحاط به؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ١١٠ ﴾ [طه: ١١٠] فنفي الإحاطة مع ثبوت العلم؛ قال سعيد بن المسيب: لا تحيط به الأبصار. وقال

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١١٥/١ رقم ٥٥٤، والإمام مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ٤٣٩/١ رقم ٦٣٣. نحوه.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل السجود ١٦٠/١ رقم ٨٠٦، والإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية١٦٣/١ رقم ١٨٣. عن أبي هريرة ﷺ نحوه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١١٧/٢٦ رقم ١٦١٩٩، نحوه. وأخرجه أبو داود كتاب باب في الرؤية ٢٣٤/٤ رقم ٤٧٣١ حسن. وابن ماجه في سننه، كتاب باب فيما أنكرت الجهمية ٦٤/١ رقم ١٨٠. حسن.

عطاء: كلت أبصار، المخلوقين عن الإحاطة به. وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– ومقاتل: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة[1]. وظاهر هذا التسوية بين الإدراك والرؤية، ويدل على هذا التخصيص قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [القيامة] فقوله: ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ مقيد بيوم القيامة، ويكون هذا جمعاً بين الآيتين"[2]. وهذا الذي ذكره الخطيب الشربيني تقرير لا مزيد عليه.

(١) تفسير البغوي ١٤٢/٢، زاد المسير ٦٢/٢، تفسير الخازن ١٤٢/٢.
(٢) السراج المنير ٤٤١/١.

المبحث الثاني

ما يشعر بالجوارح

إذا ورد في القرآن الكريم، أو السنة النبوية المشرفة ما يشعر بنسبة الجوارح إلى الله تعالى، فإن أهل السنة والجماعة –سلفاً وخلفاً– متفقون على وجوب صرف هذه الآيات عن معناها الظاهر، وتنزيهه تعالى عما تدل عليه بحسب ظاهرها؛ لأن ذلك يشعر بالتركيب والتبعيض والحدوث –وهو من صفات الحوادث– وذاته تعالى ليست مركبة من أجزاء، وهو سبحانه منزه عن مشابهة الحوادث. فالسلف يفوضون الله تعالى في المراد، والخلف يؤولونه تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. وقد سار الخطيب الشربيني –رحمه الله– على منهج الخلف في تأويل هذه الآيات تأويلاً يليق بجلال الله تعالى؛ على النحو التالي:

ما يشعر بإثبات الوجه:

سار الخطيب الشربيني في تفسير الآيات التي تشعر بإثبات الوجه لله تعالى على منهج الخلف، وذلك بتأويلها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١١٥] –:" ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أي: ناحيتا الأرض؛ أي: له الأرض كلها، لا يختص به مكان دون مكان، فإن مُنعتم أن تصلوا في المسجد الحرام والأقصى، فقد جعلت لكم الأرض كلها مسجداً ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ وجوهكم، أيّ جهة، وهو الصدر في الصلاة ﴿ فَثَمَّ ﴾ أي: هناك ﴿ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ أي: قبلته –كما قاله مجاهد–[1] وقال الكلبيّ: فثم الله يعلم ويرى وجه صلة؛ كقوله تعالى:

(١) السراج المنير ٤٢/٤، وهذا القول مروي عن ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل. وهو قول جمهور المفسرين، فإضافة القبلة إلى الله تعالى للتخصيص، كما يقال: بيت الله، وناقَةُ اللَّهِ. والوجه والجهة والوجهة: القبلة. تفسير الطبري ٥٢٧/٢، تفسير مقاتل ص١٣٣، تفسير الزمخشري١٨٠/١، مفاتيح الغيب ٢١/٤، تفسير ابن كثير ٣٩١/١، تفسير الثعلبي١/ ٢٦٣.

﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ [القصص: ٨٨]"[١].

وقد ورد في الآية أقوال أخر، فعن ابن عباس ومقاتل: يريد علمه معكم أينكما كنتم. وقيل: رضا الله وثوابه، الذي يحصل به الطاعة. وقيل: هو بمعنى الجاه، ويؤول إلى الجلال والعظمة. وجميع هذه الآراء مقبولة؛ لأنها موافقة للتأويل، وليست منكرة في الشرع، وبعضها يؤول إلى بعض. وإن كان أولاها ما عليه الجمهور، فهو المروي عن الصحابةﷺ، والموافق للغة. والعرب تسمي القصد الذي يتوجه إليه: وجهاً[٢].

النموذج الثاني: قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]: " ﴿ وَيَبۡقَىٰ﴾ أي: بعد فناء الكل بقاء مستمرّا إلى ما لا نهاية له ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾ أي: ذاته، فالوجه عبارة عن وجود ذاته. قال ابن عباس: الوجه عبارة عنه"[٣].

قال الإمام القرطبي: "وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا. وقال أبو المعالي: وأما الوجه: فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى"[٤].

فثبت بهذه التأويلات أنه لا يمكن إجراء الوجه –في الآيات– على ظاهره؛ لأنه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزهاً عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض؛ إذ لو ثبت أن له وجهاً، لكان –سبحانه– جسداً مركباً، حادثاً، متحيزاً،

(١) السراج المنير ٤٢/٤، وينظر: التسهيل ١/ ٩٤، تفسير البغوي١٥٨/١، النكت والعيون للماوردي١٧٧/١، البيضاوي١٠٢/١. فالوجه هنا بمعنى الذات؛ والمعنى: أن الله يعلم ما قُصد به ذاته من أعمال الخير، ورجاء الثواب؛ يقول الناس: هذا وجه الأمر، لا يريدون به شيئاً آخر غيره، إنما يريدون به أنه من هاهنا ينبغي أن يقصد؛ يقول العلامة الألوسي: "فالوجه -على هذا القول- بمعنى الذات، إلا أنه جعل -هنا- كناية عن علمه واطلاعه" ويستدل على ذلك بما نقله الواحدي عن الكلبي قال: "كل عمل لغيره فهو هالك إلا ما كان له" قال الإمام الرازي: "واعلم أن هذا التفسير صحيح في اللغة" مفاتيح الغيب ٢٢/٤، التفسير الوسيط للواحدي ٣/ ٤١١، روح المعاني ٣٦٣/١.

(٢) تفسير الماتريدي ٤٥٤/١، التفسير الوسيط للواحدي ١٩٤/١، النكت والعيون١٧٧/١. تفسير البغوي ١٥٨/١ زاد المسير ١٠٤/١، تفسير البيضاوي ١٠٢/١، الخازن ٣٧٤/٣، روح المعاني ٣٦٣/١.

(٣) السراج المنير ١٦٤/٤.

(٤) تفسير القرطبي١٦٥/١٧.

مشابهاً للحوادث. وهذا محال على الله تعالى(١).

ما يشعر بإثبات العين:

سار الخطيب الشربيني في تفسير الآيات التي تشعر بإثبات العين لله تعالى على منهج الخلف، وذلك بتأويلها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: قوله –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ [المؤمنون: ٢٧] –:" ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ ﴾ أي: فتسبب عن دعائه أنّ أوحينا ﴿ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ أي: السفينة ﴿ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ أي: أنه لا يغيب عنا شيء من أمرك، ولا من أمرهم، وأنّ تعرف قدرتنا على كل شيء، فثق بحفظنا، ولا تخف شيئاً من أمرهم"(٢).

فالعين هنا مؤولة بالعلم والحفظ، وهذا هو رأي الجمهور في تفسير الآية. وعُبر بكثرة آلة الحس، الذي يحفظ به الشيء، ويراعى عن الاختلال والزيغ، عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل، كأنَّ معه من الله ﷻ حفاظاً وحراساً يكلئونه بأعينهم من التعدّي من الكفرة، ومن الزَّيغِ في الصَّنعةِ؛ يقول العلامة الألوسي: "والأعين حقيقة في الجارحة، وهي جارية مجرى التمثيل؛ كأن لله سبحانه أعينا تكلؤه من تعدي الكفرة، ومن الزيغ في الصنعة. والجمع للمبالغة. وجوز أن يكون المراد الحفظ الكامل على طريقة المجاز المرسل؛ لما أن الحفظ من لوازم الجارحة". وقيل: والملابسة للعين كناية عن الحفظ، والأعين للمبالغة فيه، كما أن بسط اليد كناية عن الجود"(٣).

النموذج الثاني: قوله –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه:

(١) يراجع: مفاتيح الغيب ٢١/٤، ٣٥٥/٢٩.
(٢) السراج المنير ٥٧٧/٢.
(٣) تفسير الماتريدي١٢٩/٦، تفسير البيضاوي ١٣٤/٣، تفسير أبي السعود ٢٠٥/٤، ٦/ ١٣١، حاشية الشهاب ٩٥/٥، ٣٢٧/٦، تفسير الجلالين ص ٤٤٨، روح المعاني٢٤٨/٦.

[٣٩] قال –:" ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ أي: تربى على رعايتي وحفظي لك[١]. فأنا مراعيك ومراقبك؛ كما يراعي الرجل الشيء بعينه، إذا اعتنى به[٢]. ويقول –للصانع–: اصنع هذا على عيني، أنظر إليك؛ لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي"[٣].

فالعين هنا مؤوله بالرعاية والحفظ[٤]. وهذا قول كثير من المفسرين. وعن الحسن وقتادة: لتُغَذَّى على حفظي، يقال: عين الله عليك: أي كن في حفظ الله. وقَالَ بَعْضُهُمْ: على علمي. فالعين هنا بمعنى العلم. وقيل: لتُرَبَّى وتغذى بمرأىً مني، يقال: صنع الرَّجل جاريته: إذا ربَّاها وصنع فرسه: إذا داوم على علفه ومراعاته. وعن قتادة: لتُغذى على محبتي وإرادتي. رواه الطبراني عن عبد الرازاق. وهو قول القفال. ورجحه الواحدي واختاره أبو عبيدة، وابن الأنباري[٥].

وكل هذه الأقوال قائمة على التأويل، إذ لا يمكن حمل العين في الآيات على ظاهرها؛ لأنه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزهاً عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض، فوجب المصير فيه إلى التأويل؛ يقول الإمام الرازي: "أما قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فهذا لا يمكن إجراؤه على ظاهره من وجوه: أحدها: أنه يقتضي أن يكون لله تعالى أعين كثيرة. وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩] وثانيها: أنه يقتضي أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الأعين، كما يقال: قطعت بالسكين، وكتبت بالقلم، ومعلوم أن ذلك باطل. وثالثها: أنه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزهاً عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض، فوجب المصير

(١) تفسير الجلالين ص ٤٠٨.
(٢) تفسير النسفي ٣٦٤/٢.
(٣) السراج المنير ٤٦٢/٢، وينظر: الكشاف ٦٣/٣، تفسير البيضاوي ٢٤/٤، تفسير الخازن ٢٠٤/٣.
(٤) قال العلامة الألوسي: "وهو استعارة تمثيلية للحفظ والصون؛ فإن المصون يجعل بمرأ" روح المعاني ٥٠٣/٨.
(٥) تفسير الطبري ٣٠٤،/١٨ تفسير الماتريدي ٢٨٠/٧، التفسير الوسيط للواحدي ٢٠٦/٣، تفسير الثعلبي ٢٤٤/٦، النكت والعيون ٣/ ٤٠٢. زاد المسير ١٥٨/٣، مفاتيح الغيب ٤٨/٢٢، تفسير البغوي ٢٦١/٣. تفسير النسفي ٣٦٤/٢، تفسير القرطبي ١٩٧/١١.

فيه إلى التأويل"[١].

ما يشعر بإثبات اليد:

نهج الخطيب الشربيني –في تفسير الآيات التي تشعر بإثبات اليد لله تعالى– منهج الخلف، وذلك بتأويلها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. والنماذج على ذلك عديدة:

النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤]

أول الخطيب الشربيني اليد بالجود، فقال: "وغلّ اليد وبسطّها: مجاز عن البخل والجود؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩] [٢] ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد، ولا غل، ولا بسط، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال؛ لأن بسط اليد، وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقولهم: بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس –الذي هو معنى من المعاني، لا من الأعيان– كفان. ثم قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ مشيراً بالتثنية إلى غاية الجود، وأنّ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه جميعاً ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أي: هو مختار في إنفاقه، يضيق تارة ويوسع أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته"[٣].

فبسط اليد –على ذلك– مجاز عن الجود، والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السبب على المسبب. وقيل: إضافة اليد إلى الله تعالى في الآية على طريق الاستعارة، جرياً على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتا يديه. ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الجود قرينة الإنفاق. ومن نظر في

(١) مفاتيح الغيب ٣٤٤/١٧.
(٢) الكشاف٦٥٤/١، مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٩٤.
(٣) السراج المنير ٣٨٥/١، وهذا المعنى رواه ابن جرير عن ابن عباس. تفسير الطبري ٤٥١/١٠.

كلام العرب عرف يقيناً أن بسط اليد، وقبضها استعارة للجود والبخل[١].

وروي عن الحسن والسدي: أنها بمعنى القدرة أو القوة، وتثنيتها باعتبار تعلقها بالثواب وتعلقها بالعقاب. وقيل: إن اليد هنا: بمعنى الملك؛ من قولهم –في مملوك الرجل–: هو ملك يمينه، ومعناه: ملك الدنيا والآخرة. وقيل: إن التثنية للمبالغة في صفة النعمة، كما تقول العرب لبيك وسعديك[٢].

فبطل بهذه الأوجه ما ادعته المجسمة من إجراء الآيات التي تثبت لله تعالى يداً على ظاهرها، وحملها على الحقيقة؛ إذ لوكان كذلك، لكان –سبحانه– جسماً مركباً، متحيزاً، متناهياً، مشابهاً للحوادث، حادثاً، مفتقراً إلى محدث. وقد ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزهاً عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض؛ قال ابن عطية: "العقيدة في هذه المعنى: نفي التشبيه عن الله تعالى، وأنه ليس بجسم، ولا له جارحة، ولا يشبه، ولا يكيف، ولا يتحيز في جهة، كالجواهر، ولا تحله الحوادث، تعالى عما يقول المبطلون"[٣]. وقال الإمام الرازي: "اختلفت الأمة في تفسير يد الله تعالى، فقالت المجسمة: إنها عضو جسماني، كما في حق كل أحد. وأما السلف ففوضوا معرفتها إلى الله تعالى. وأما المتكلمون فقالوا: اليد تذكر في اللغة على وجوه: أحدها: الجارحة والنعمة والقوة والملك، وشدة العناية والاختصاص. إذا عرفت هذا فنقول: اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة"[٤].

كلام الله تعالى:

يقول الخطيب الشربيني في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ

(١) مفاتيح الغيب ١٢/ ٣٩٤، تفسير القرطبي١٣٥/٢، البحر المحيط٣١٥/٤، تفسير أبي السعود ٥٨/٣ والشهاب ٢٦١/٣، ورح المعاني٣٤٧/٣

(٢) تفسير الماتريدي٣/ ٥٥١، النكت والعيون٥١/٢، تفسير القرطبي٢٣٩/٦، روح المعاني ٣٤٧/٣.

(٣) مفاتيح الغيب ٣٩٥/١٢، تفسير ابن عطية٢١٥/٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٣٩٥/١٢.

رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]-: "دلت الآية الكريمة على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام. والناس مختلفون في كلام الله تعالى؛ قال الزمخشريّ -في كشافه-: ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ من غير واسطة، كما يكلم الملك. وتكليمه: أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطاً في اللوح، اهـ[١]. وهذا مذهب المعتزلة[٢]. ولا شك في بطلانه، وفساده؛ لأنّ ذلك الجرم -كالشجرة- لا يقول: ﴿ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤] فثبت بذلك بطلان ما قالوه. وذهب بعض الحنابلة والحشوية: إلى أنّ كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة، وأنه قديم[٣]. قال الإمام الرازي: "وهذا القول أخس من أن يلتفت إليه العقل"[٤]. والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة: أنّ كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات[٥]. وأنّ موسى سمع تلك الصفة الحقيقية الأزلية، قالوا: كما أنه لا يبعد رؤية ذاته، مع أنّ ذاته ليست جسماً، ولا عرضاً، كذلك لا يبعد سماع كلامه، مع أنّ كلامه لا يكون حرفاً ولا صوتاً"[٦].

زعمت المعتزلة أن كلام الله حادث؛ لأن من لوازمه الحروف والأصوات الحادثة، وهي غير قائمة بذاته تعالى، فكلام الله -عندهم- مخلوق، ومعنى كونه متكلماً أنه خالق للكلام في بعض الأجسام؛ لزعمهم أن الكلام لا يكون إلا بحروف وأصوات، وذلك مستحيل على الله تعالى. ومذهب أهل السنة: أن القرآن بمعنى الكلام النفسي

(١) الكشاف ١٥٢/٢.
(٢) شرح جوهرة التوحيد ص ٨٣، ص ١٠٦.
(٣) زعمت الحشوية وطائفة سموا أنفسهم الحنابلة: أن كلام الله هو الحروف والأصوات المتوالية المترتبة، ويزعمون أنها قديمة. وتغالى بعضهم حتى زعم قدم هذه الحروف التي نقرأها والرسوم. بل تجاوز جهل بعضهم لغلاف المصحف. شرح الجوهرة ص ٨٣.
(٤) مفاتيح الغيب ٣٥٣/١٤. ويرد عليهم بالقطع بحدوثه؛ لما في لفظ المخلوق من إيهام الخلق، إذ الكلام المخلوق هو الذي يبديه المتكلم، تخرصاً من غير أصل. الإرشاد٩٤.
(٥) مذهب أهل السنة: أن كلام الله تعالى صفة أزلية، قائمة بذاته تعالى، ليست بحرف، ولا صوت منزهة عن التقدم والتأخر، والإعراب والبناء، منزهة عن السكوت النفسي، بألا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه، ومنزهة عن الآفات الباطنة، بألا يقدر على ذلك، كما في حالات الخرس والطفولية. شرح الجوهرة ص ٨٣.
(٦) السراج المنير ٥١٢/١، وينظر: مفاتيح الغيب ٣٥٣/١٤.

ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق، لكن يمتنع أن يقال: القرآن مخلوق، ويراد به اللفظ الذي نقرأه إلا في مقام التعليم؛ لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق؛ ولذلك امتنعت الأئمة عن القول بخلق القرآن(١).

وقد نهج الخطيب الشربيني منهج مذهب أهل السنة، ورد على المخالفين في ذلك.

ما يشعر بإثبات اليمين:

نهج الخطيب الشربيني –في تفسير الآيات التي تشعر بإثبات اليمين لله تعالى– منهج الخلف، فأولها بالقوة والقدرة، فقال –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]: "حاصل القول بالقبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة(٢). فكما أن حفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرته تعالى، فكذلك الآن. فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة؟ وأجاب: بأنه خصص تلك الحالة بيوم القيامة؛ ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا، يظهر كمال قدرته في الإعدام عند خراب الدنيا"(٣).

قامت الدلائل العقلية على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى، ولما كان لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح، فوجب تأويل هذه الأعضاء، وقد أولها الخطيب الشربيني –رحمه الله– بالقوة والقدرة، وهذا هو قول الجمهور؛ يقول ابن عطية: "فاليمين هنا والقبضة، وكل ما ورد عبارة عن القدرة والقوة، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل". واليمين في كلام العرب قد ورد بمعنى القدرة والملك، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: لأخذنا قوته وقدرته. قال الفراء والمبرد: اليمين القوة والقدرة. وقيل: القبضة مجاز عن الملك، أو التصرف؛ كما يقال:

(١) شرح جوهرة التوحيد ص٨٣، ١٠٦.
(٢) مفاتيح الغيب ٤٧٥/٢٧.
(٣) السراج المنير ٤٦١/٣، وينظر: مفاتيح الغيب٤٧٥/٢٧.

بلد كذا في قبضة فلان. واليمين مجاز عن القدرة التامة. وقيل: المراد باليمين القسم؛ أي: والسماوات مفنيات بسبب قسمه تعالى؛ لأنه ﷻ أقسم أن يفنيها(١).

ما يشعر بإثبات الجنب:

نهج الخطيب الشربيني –في تفسير الآيات التي تشعر بإثبات الجنب لله تعالى– منهج الخلف، فأولها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى، فقال –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦] –:" ﴿ أَن ﴾ أي: كراهة أن ﴿ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ أي: عند وقوع العذاب وإفرادها وتنكيرها كاف في الوعيد لأن كل أحد يجوز أن يكون هو المراد ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن: قصرت في طاعة الله. وقال مجاهد: في أمر الله. وقال سعيد بن جبير: في حق الله. وقيل: ضيعت في ذات الله(٢). وقيل: معناه قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله تعالى. والعرب تسمي الجانب جنباً(٣) قال في الكشاف: هذا من باب الكناية. لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه، فقد أثبته فيه، ألا ترى إلى قول الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

أي: فإنه لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج، بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه، فأفاد اثباتها له. والقبة تكون فوق الخيمة تتخذها الرؤساء"(٤).

(١) جامع البيان ٢١/ ٣٢٤، النكت والعيون ١٣٤/٥، الكشاف ١٤٤/٤، مفاتيح الغيب ٤٧٥/٢٧، تفسير ابن عطية ٥٤١/٤، تفسير القرطبي ٢٧٨/١٥، روح المعاني٢٨٠/١٢.

(٢) وعن ابن عباس: ضيعت من ثواب الله. وقال مقاتل: ضيعت من ذكر الله. فيكون الكلام على تقدير حذف مضاف؛ أي: في جنب طاعة الله، ونحوه. مفاتيح الغيب ٢٧/ ٤٦٦، روح المعاني ٢٧٢/١٢.

(٣) يراجع تفسير الطبري ٣١٥/٢١، النكت والعيون١٢٣/٥، تفسير البغوي٩٨/٤، زاد المسير٢٤/٤، مفاتيح الغيب ٢٧/ ٤٦٦، تفسير القرطبي ٢٧١/١٥.

(٤) السراج المنير ٤٧٥/٤، وينظر: الكشاف ١٣٧/٤. وقال الراغب: والتفريط في جهة الطاعة كناية عن التفريط في الطاعة نفسها؛ لأن من ضيع جهة، ضيع ما فيها بطريق الأولى. مفاتيح الغيب ٢٧/ ٤٦٦، روح المعاني ٢٧٢/١٢.

لما كان لفظ الجنب مشعر بالأعضاء والجوارح، وذلك ممتنع على الله ﷻ وجب تأويل الجنب؛ وعلى ما ذكره الخطيب الشربيني فإن التأويل يكون على تقدير حذف مضاف، أو أن الكلام من قبيل الكناية؛ يقول الإمام الرازي: "القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية. واعلم أن دلائلنا على نفي الأعضاء قد كثرت، فلا فائدة في الإعادة، ونقول –بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضواً مخصوصاً لله تعالى–: فإنه يمتنع وقوع التفريط فيه، فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل[1].

ما يشعر بإثبات الساق:

نهج الخطيب الشربيني منهج الخلف في تأويل الساق، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢] فقال –رحمه الله–: "وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ أي: فليأتوا بشركائهم يوم ﴿ يُكْشَفُ ﴾ أي: يحصل الكشف فيه، بني للمفعول؛ لأن المخيف وقوع الكشف الذي هو كناية عن تفاقم الأمر، وخروجه عن حدّ الطوق، لا كونه من معين، مع أنه من المعلوم أنه لا فاعل هناك غيره سبحانه وتعالى ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ أي: يشتدّ فيه الأمر غاية الاشتداد؛ لأن من اشتد عليه الأمر وجد في فصله، شمر عن ساقه لأجله. وشمرت حرمه عن سوقهنّ غير محتشمات، فهو كناية عن هذا؛ ولذلك نكره تهويلاً له وتعظيماً[2] نُقل هذا التأويل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما[3] وعن انكشاف جميع الخلائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الأهوال وغيرها، كما كشفت هذه

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٤٦٦.
(٢) وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب، فإنهن لا يفعلن ذلك إلّا إذا عظم الخطب، واشتد الأمر، فيذهلن عن الستر بذيل الصيانة. روح المعاني ٢٧٢/١٢.
(٣) تفسير الطبري ٥٥٤/٢٣، ٥٥٥، تفسير ابن أبي حاتم ٣٣٦٦/١٠، تفسير البغوي ١٣٩/٥، تفسير ابن كثير ١٩٩/٨.

الآيات جميع الشبه، فتركت السامع لها في مثل ضوء النهار[١] ثم قال –رحمه الله– تنبيه: عُلم مما تقرر أن كشف الساق كناية عن الشدة، ثم نقل ما يؤيد ذلك من اللغة وأقوال الأئمة، ثم قال: وقال القرطبي: وأما ما روي أن الله تعالى يكشف عن ساقه، فإنه تعالى متعال عن الأعضاء والأبعاض، وأن ينكشف ويتغطى. ومعناه: أن يكشف عن العظيم من أمره[٢] وقيل: يكشف عن نوره ﷻ"[٣].

لما كان لفظ الساق يشعر بإثبات الجارحة، وهو محال على الله تعالى، إذ يستحيل أن يكون سبحانه جسماً، فحينئذ وجب تأويل الساق في الآية؛ قال العلامة النسفي: "وأما من شبه، فلضيق عطنه، وقلة نظر في علم البيان، ولو كان الأمر كما زعم المشبهة لكان من حق الساق أن يعرف؛ لأنها ساق معهودة عند"[٤].

وقد جعله الخطيب الشربيني كناية عن اشتداد الأمر غاية الاشتداد، أو استعارة لانكشاف جميع الخلائق وظهور الجلائل فيه والدقائق من الأهوال وغيرها، وهو ما عليه جمهور المفسرين.

ما يشعر بإثبات النفس:

نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج الخلف في تفسير ما يشعر بإثبات النفس لله تعالى، والنماذج على ذلك عديدة.

النموذج الأول: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ ﴾ [آل عمران: ٢٨] قال الخطيب الشربيني –رحمه الله–: "﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(١) وذلك بناء على أن ساق الشيء أصله الذي به قوامه، كساق الشجرة وساق الإنسان؛ أي: يوم يكشف عن أصل الأمر، فتظهر حقائق الأمور وأصلها، فهو مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان. تفسير القرطبي ١٨/ ٢٤٩، روح المعاني ٣٩/١٥، تفسير البيضاوي ٥/ ٢٣٧.

(٢) تفسير القرطبي ٢٤٩/١٨، المحرر الوجيز ٧١/٦.

(٣) السراج المنير ٣٦٣/٤، ٣٦٤، وروي هذا عن ابن عباس ومجاهد وإبراهيم النخعي وعكرمة وجماعة تفسير البغوي١٣٩/٥، زاد المسير٣٢٥/٤، تفسير الرازي ٦١٣/٣٠، تفسير القرطبي ٢٤٩/١٨، تفسير ابن كثير ١٩٩/٨، روح المعاني ١٥/ ٣٩.

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣/ ٥٢٥.

أي: يخوّفكم ﴿ نَفۡسَهُۥۗ ﴾ أن يغضب عليكم إن واليتموهم"[١].

وقد وردت أقوال أخرى في تفسير النفس في الآية، فقيل: عقوبته. وقيل: ذاته، فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه. وقيل: عذاب نفسه. وقيل: إن النفس هاهنا تعود إلى اتخاذ الأولياء من الكفار؛ أي: ينهاهم الله عن نفس هذا الفعل[٢].

النموذج الثاني: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [طه: ٤١] قال الخطيب الشربيني –رحمه الله–: "﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ ﴾ أي: اخترتك ﴿ لِنَفۡسِي ﴾ لأصرّفك في أوامري؛ لئلا تشتغل إلا بما أمرتك به، وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي، وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي، لا لنفسك، ولا لغيرك"[٣].

وما ذهب إليه الخطيب الشربين هو قول كثير من المفسرين، وهو المروي عن ابن عباس. وقيل: لمحبتي[٤]. وقال الإمام الرازي: "هذا تمثيل؛ لأنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلا لأن يكون أقرب الناس منزلة إليه وأشدهم قربا منه" وقال العلامة الألوسي: "ولا يخفى حسن هذه الاستعارة، وهي أوفق بكلامه تعالى، وقوله تعالى: ﴿ لِنَفۡسِي ﴾ عليها ظاهر"[٥].

(١) السراج المنير ٢٠٨/١.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٣١٧، التفسير الوسيط للواحدي ٤٢٨/١، المحرر الوجيز ٤٢٠/١، مفاتيح الغيب ١٩٤/٨، تفسير النسفي ٢٤٨/١، تفسير ابن كثير ٣١/٢، تفسير أبي السعود ٢٣/٢.
(٣) السراج المنير ٤٦٣/٢، وينظر: مفاتيح الغيب ٥١/٢٢.
(٤) النكت والعيون ٤٠٤/٣، التفسير الوسيط للواحدي ٢٠٧/٣، تفسير البغوي ٢٦٢/٣، زاد المسير ١٥٩/٣، تفسير القرطبي ١٩٨/١١، تفسير النسفي ٣٦٥/٢، روح المعاني ٥٠٦/٨.
(٥) مفاتيح الغيب ٥١/٢٢، روح المعاني ٥٠٦/٨.

المبحث الثالث

ما يشعر بالانفعالات والأعراض النفسانية

ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي تشعر بوصف الله تعالى بالانفعالات النفسية والتغيرات الداخلية؛ كالغضب والفرح والرضا والسخط، وغير ذلك؛ مما يوهم بمشابهته تعالى للحوادث؛ ولهذا فقد اتفق أهل السنة والجماعة –سلفاً وخلفاً– على وجوب صرف هذه الآيات عن ظاهرها، وتنزيهه تعالى عما يدل عليه لفظها، فالسلف يفوضون الله تعالى في المعنى المراد، والخلف يؤولونه تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. وقد سار الخطيب الشربيني –رحمه الله– على منهج الخلف في تأويل هذه الآيات تأويلاً يليق بجلال الله تعالى؛ على النحو التالي:

ما يشعر بنسبة الحب لله تعالى:

المحبَّة: ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه، وهي في اللفظ فعل، وفي الحقيقة انفعال(١). وهي بهذا المعنى لا تليق بالله تعالى؛ ولهذا فقد سلك الخطيب الشربيني –رحمه الله تعالى– طريقة الخلف في تأويل ما يشعر بنسبة الحب لله تأويلاً يليق بجلاله تعالى؛ فيقول– في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] –:"فمحبة العبد لله طاعته، والاعتناء بتحصيل مراضيه. ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه، واستعماله في الطاعة، وصونه عن المعاصي"(٢).

وهذا الذي ذهب إليه الخطيب الشربيني هو قول جمهور المفسرين، فعبر عن الرضا عنهم، وإرادة إكرامهم، وثنائه عليهم، وإثابته لهم، وصونهم عن المعاصي، وعفوه بالمحبة على طريق الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المقابلة، أو المشاكلة(٣).

(١) تفسير البيضاوي١٣/٢، البحر المحيط في التفسير ٢/ ٨٧.
(٢) السراج المنير ١١٠/١.
(٣) مفردات غريب القرآن ٢١٤، مفاتيح الغيب ١٧٦/٤، التفسير الوسيط للواحدي ٤٢٩/١، تفسير البغوي ٤٢٩/١، البحر المحيط٢/ ٨٧، ١٠٣/٣، البيضاوي١٣/٢، تفسير أبي السعود ٢٤/٢، روح المعاني ٢/ ١٢٥.

ما يشعر باتصاف الله تعالى بالرحمة:

الرَّحْمَةُ: رقّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُومِ. وهي بهذا المعنى لا تجوز على الله تعالى، ولهذا فقد سلك الخطيب الشربيني –رحمه الله تعالى– طريقة الخلف في تأويل ما يشعر باتصافه تعالى الرحمة، فأولها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى.

ومن ذلك قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦] –: "﴿ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ربه تعالى أي: أراد به الخير"(١).

فقد أول الخطيب الشربيني –رحمه الله– رحمة الله بإرادة الخير بالخلق، وتوفيقهم، والاعتناء بصلاح أمرهم، وهذا ما عليه جمهور المفسرين؛ وذلك لأن الرَّحْمَةُ: رقّة تقتضي الإحسان إلى الْمَرْحُومِ. وهي بهذا المعنى لا تجوز على الله تعالى، فإذا وصف به الباري فليس يراد به إلّا الإحسان المجرّد دون الرّقّة(٢).

ما يشعر بنسبة الغضب لله تعالى:

سلك الخطيب الشربيني –رحمه الله – طريقة الخلف في تأويل ما يشعر بالغضب في حق الله تعالى، تأويلاً يليق بجلاله تعالى.

ومن ذلك: قوله–في تفسير قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٧] –:"فإن قيل: ما معنى غضب الله؟ لأنّ الغضب ثوران النفس عند إرادة الانتقام، أو تغير يحصل عند ثوران دم القلب إرادة الانتقام(٣). وهو محال في حقه تعالى؟ أجيب: بأنه إذا أسند إلى الله تعالى، أريد به المنتهى

(١) السراج المنير ٤١٣/١، وينظر: تفسير القرطبي ٣٩٨/٦، تفسير البيضاوي ١٥٦/٢، تفسير النسفي ٤٩٤/١، الخازن ١٠٢/٢، البحر المحيط ٤٥٤/٤، تفسير أبي السعود ١١٧/٣، فتح القدير ١١٩/٢، روح المعاني ١٠٦/٤.

(٢) مفردات غريب القرآن للرغاب الأصفهاني ص ٣٤٧، بصائر ذوي التمييز ٥٣/٣.

(٣) مفردات غريب القرآن ص ٦٠٨، بصائر ذوي التمييز ١٣٥/٤.

والغاية[١] فمعناه: إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعل الملك إذا غضب على من تحت يده. نعوذ بالله من غضبه، ونسأله رضاه ورحمته"[٢].

بينَّ الخطيب الشربيني –رحمه الله– أن الغضب ثوران النفس عند إرادة الانتقام. أو تغير يحصل عند ثوران دم القلب إرادة الانتقام، وهو –بهذا المعنى– محال في حقه تعالى؛ ولهذا فقد أوله –رحمه الله– بإرادة الانتقام، وإنزال العقوبة بالعصاة. وهذا التفسير وفق مذهب الخلف، وهو مذهب جمهور المفسرين؛ يقول الإمام القرطبي: "وغضب الله: عقابه، ونقمته، وعذابه". ويقول العلامة الألوسي: "وإذا وصف الله تعالى به لم يرد هذا المعنى قطعاً، وأريد معنى لائق بشأنه عز شأنه. وقد يراد به الانتقام والعقوبة"[٣].

ما يشعر بنسبة الرضا لله تعالى:

أول الخطيب الشربيني –رحمه الله– الرضا في حق الله تعالى تأويلاً يليق بجلاله، وفق مذهب الخلف، ومن ذلك قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر: ٧] –:" ﴿ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ ﴾ أي: لأحد منهم ﴿ ٱلۡكُفۡرَۖ ﴾ أي: بالإقبال على ما سواه، وأنتم لا ترضون ذلك لعبيدكم، مع أن ملككم لهم في غاية الضعف. ومعنى عدم الرضا به: لا يفعل فعل الراضي؛ بأن يأذن فيه، ويقر عليه، ويثيب فاعله، ويمدحه، بل يفعل فعل الساخط؛ بأن ينهى عنه، ويذم عليه، ويعاقب مرتكبه، وإن كان بإرادته، إذ لا يخرج شيء عنها؛ وهذا قول قتادة. والسلف أجروه

(١) يقول الإمام الرازي: "هاهنا قاعدة كلية، وهي أن جميع الأعراض النفسانية- أعني الرحمة، والفرح، والسرور، والغضب، والحياء، والغيرة، والمكر والخداع، والتكبر، والاستهزاء- لها أوائل، ولها غايات، ومثاله الغضب فإن أوله غليان دم القلب، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله تعالى لا يحمل على أوله -الذي هو غليان دم القلب- بل على غايته -الذي هو إرادة الاضرار- وأيضا، والحياء له أول وهو انكسار يحصل في النفس، وله غرض وهو ترك الفعل، فلفظ الحياء في حق الله يحمل على ترك الفعل، لا على انكسار النفس، وهذه قاعدة شريفة في هذا الباب" مفاتيح الغيب ٢٢٣/١.

(٢) السراج المنير ١٣/١، وينظر: مفاتيح الغيب ١٢٣٢/١، التفسير الوسيط للواحدي ٧٠/١، تفسير البغوي٧٦/١.

(٣) تفسير القرطبي ٢٣١/١١، روح المعاني ٥٥٠/٨.

على عمومه"[1].

أول الخطيب الشربيني –رحمه الله– رضا الله تعالى بقبول طاعة عباده، وارتضاء أعمالهم، وعدم الرضا به: ألا يفعل فعل الراضي. وهذا هو مذهب جمهور المفسرين.

ما يشعر بنسبة العَجَب والتعجب لله تعالى:

العَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء. وقال بعض الحكماء: العَجَبُ ما لا يُعرف سببه؛ ولهذا قيل: لا يصحّ على الله التَّعَجُّبُ، إذ هو علّام الغيوب، لا تخفى عليه خافية"[2]. والخطيب الشربيني –رحمه الله– نهج منهج الخلف، فأول العجب في حق الله تعالى بالإنكار والذم، أو الاستحسان والرضا، فقال –في تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ ﴾ [الصافات: ١٢] –:" وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ بَلۡ **عجبتُ** ﴾ بضم التاء. والباقون بفتحها[3]، أما بالضم فبإسناد التعجب إلى الله تعالى، وليس هو كالتعجب من الآدميين، كما قال تعالى: ﴿ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾ [التوبة: ٧٩] وقال تعالى: ﴿ فَنَسِيَهُمۡۚ ﴾ [التوبة: ٦٧] فالعَجَب من الآدميين: إنكاره وتعظيمه. والعَجَب من الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار والذم، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضا؛ كما في الحديث: «**يَعْجَبُ** «**عَجِبَ رَبُّكُم من شَّابٍ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**»[4]. وفي حديث آخر: «**عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلّكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِهِ إِيَّاكُمْ**»[5]. وسئل الجنيد

(١) السراج المنير ٤٣٤/٣، وينظر: التفسير والوسيط للواحد ٥٧٢/٣، تفسير البغوي ٨٠/٤، مفاتيح الغيب ٢٦/ ٤٢٥، تفسير القرطبي ٢٣٦/١٥.

(٢) مفردات غريب القرآن ٥٤٧/١، بصائر ذوي التمييز ٢٠/٤.

(٣) السبعة في القراءات لابن مجاهد ص: ٥٤٧.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عقبة بن عامر ﷺ بلفظ: «إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ» ٦٠٠/٢٨ رقم ١٧٣٧١، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٧٠/١٠، باب فيمن تشبه من الشباب بالكهول. رقم ١٧٩٥٤.

(٥) أخرجه البغوي في شرح السنة باب البكاء من خشية الله ٣٦٥/١٤، رقم ٤١٦٩. وقال الزيلعي -في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٥/٣-:"غريب" والزيلعي قال في نصب الراية أنه إذا قال عن حديث: غريب، فلا أصل له.

عن هذه الآية، فقال: إن الله تعالى لا يعجب من شيء، ولكن وافق رسوله ﷺ"[١].

وهذا التفسير الذي سار إليه الخطيب الشربيني –رحمه الله– هو مذهب جمهور المفسرين، وإليه أشار أصحاب معاجم القرآن؛ يقول الفيروز آبادي: "والعَجب يفسَّر بالرضا". وقال ابن الأَنباريّ: "عجِب الله؛ أَي: عَظُم ذلك عنده، وكَبُر جزاؤكم منه"[٢].

ما يشعر بالاستهزاء:

أول الخطيب الشربيني –رحمه الله تعالى– الاستهزاء المسند إلى الله تعالى تأويلاً يليق بجلاله تعالى، فقال –في تفسير قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ ﴾ [البقرة: ١٥] –: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، سمي جزاء الاستهزاء باسمه، كما سمي جزاء السيئة بسيئة[٣]. إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر. ومثل هذا يسمى مشاكلة[٤]. أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء، والغرض منه[٥]. أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم، فيكون كالمستهزئ بهم[٦]. أو يعاملهم معاملة المستهزئ؛ أما في الدنيا فبإجراء أحكام الإسلام الإسلام عليهم، واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة مع التمادي في الطغيان[٧]. وأمّا في الآخرة فبأن يفتح لهم –وهم في النار– باباً إلى الجنة، فيسرعون نحوه، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ

(١) السراج المنير ٣٧٢/٣، وينظر: تفسير الثعلبي ١٤١/٨، تفسير البغوي ٤/ ٢٨، تفسير الخازن ١٦/٤،
(٢) بصائر ذوي التمييز ٢٠/٤.
(٣) النكت والعيون ٧٧/١، التفسير الوسيط للواحدي ٩٠/١، تفسير الراغب الأصفهاني ١٠٣/١، تفسير البغوي٨٩/١، زاد المسير ٣٤/١، مفاتيح الغيب ٢/ ٣٠٩، تفسير القرطبي ٢٠٧/١، تفسير البيضاوي ٤٨/١، تفسير النسفي ٥٣/١،
(٤) ففي الكلام استعارة تبعية، أو مجاز مرسل. روح المعاني ١٦٠/١.
(٥) مفاتيح الغيب ٢/ ٣٠٩، تفسير البيضاوي ٤٨/١، فهو مجاز عما هو بمنزلة الغاية له، فيكون من إطلاق المسبب على السبب، نظراً إلى التصور، وبالعكس نظراً للوجود. روح المعاني ١٦٠/١.
(٦) النكت والعيون ٧٧/١، تفسير البيضاوي ٤٨/١، فيكون الكلام على سبيل الاستعارة المكنية. وإثبات الاستهزاء له تخييلاً، ورب شيء يصح تبعاً، ولا يصح قصداً، وله سبحانه أن يطلق على ذاته المقدسة ما يشاء تفهيما للعباد. روح المعاني١/ ١٦١.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني ١٠٣/١، زاد المسير ٣٤/١، تفسير البيضاوي ٤٨/١، مفردات غريب القرآن ص ٨٤١، بصائر ذوي التمييز ٣٢٥/٥، فيكون الكلام على سبيل التمثيل. روح المعاني ١٦١/١.

يَضۡحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤] "[١].

الاستهزاء لا يليق بالله ﷻ؛ لأنه مزح في خفه، ولا ينفك عن الجهل، وهو لعب، لا يليق بكبريائه تعالى؛ ولهذا فقد أوله الخطيب الشربيني –رحمه الله، تأويلاً يليق بجلال الله سبحانه. وقد حملت طائفة الاستهزاء منه تعالى على حقيقته، وإن لم يكن المستهزئ من أسمائه سبحانه، وقالوا: إنه التحقير على وجه من شأنه أن من اطلع عليه يتعجب منه ويضحك، ولا استحالة في وقوع ذلك منه عز شأنه، ومنعوه من قياس الغائب على الشاهد. وذهب أكثر الناس إلى أنه لا يوصف به– جل وعلا– حقيقة؛ لما فيه –كما يقول العلامة الألوسي– من تقرير بالمستهزئ به على الجهل الذي فيه، فهو لعب لا يليق بكبريائه تعالى. ويقول الراغب: "الهُزْءُ: مزح في خفية. والِاسْتِهْزَاءُ من الله في الحقيقة لا يصحّ، كما لا يصحّ من الله اللهو واللّعب، تعالى الله عنه". ويقول الإمام الرازي: "والاستهزاء لا ينفك عن التلبيس، وهو على الله محال، ولأنه لا ينفك عن الجهل"[٢].

ما يشعر بالمكر:

المَكْرُ محال على الله تعالى؛ لأنه صرف الغير عمّا يقصده بنوع من الحيلة[٣]. ولهذا فقد أول الخطيب الشربيني –رحمه الله– المكر تأويلا يليق بجلال الله تعالى.

النموذج الأول: قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] –: "﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ أي: أعلمهم به، فقال الزجاج:

(١) السراج المنير ٢٦/١، وهذا مروي عن ابن عباس. النكت والعيون ٧٧/١، التفسير الوسيط للواحدي ٩٠/١، تفسير الراغب الأصفهاني ١٠٣/١، تفسير البغوي ٨٩/١، زاد المسير ٣٤/١، مفاتيح الغيب ٢/ ٣٠٩، تفسير البيضاوي ٤٨/١، تفسير الخازن ٢٨/١،

(٢) مفردات غريب القرآن ص ٨٤١، بصائر ذوي التمييز ٣٢٥/٥، مفاتيح الغيب ٢/ ٣٠٩، روح المعاني ١٦٠/١.

(٣) مفردات غريب القرآن ص ٧٧٢، بصائر ذوي التمييز ٥١٦/٤.

مجازاتهم على مكرهم[١]، فسمي الجزاء باسم الابتداء؛ لأنه في مقابلته؛ كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ [البقرة: ١٥]"[٢].

وبذلك سار الخطيب الشربيني على منهج الخلف في تفسير مكر الله تعالى. وهذا هو قول جمهور المفسرين؛ فحمل المكر على معناه الحقيقي لا يجوز على الله تعالى؛ لأنه احتيال لإيقاع المضرة والمكروه بالغير، وهو أخذ بالغفلة، والله يأخذهم بالحق من حيث لا يعلمون؛ فسمي مكرًا لذلك. والمكر من المخلوقين خبث وخديعة وحيلة، ومن الله: استدراج، وأخذ العبد بغتة، من حيث لا يعلم، فلا يسند المكر إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج، أو على معنى الجزاء؛ لأنه مذموم عند الخلق. وعلى هذا الخداع والاستهزاء[٣]

ما يشعر بالانتقام:

سار الخطيب الشربيني –رحمه الله– في تفسير انتقام الله تعالى على مذهب الخلف، فأوله تأويلا يليق بجلال الله تعالى، ومن ذلك قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] – : ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ﴾ أي: كافأناهم على سوء صنيعهم[٤]. وأصل الانتقام في اللغة: سلب النعمة بالعذاب[٥]. لأنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرّات، فلم يؤمنوا، ولم يرجعوا عن كفرهم، وبلغوا الأجل الذي أجل لهم، انتقم منهم؛ بأن أهلكهم"[٦].

(١) فاطلاق المكر على المجازاة مجاز مرسل بعلاقة السببية والمشاكلة تزيده حسنا على حسن كما في شرح المفتاح ويصح فيه الاستعارة أيضا لأنهم لما أخرجوه عحنن أخرجهم الله، فإذا كان المجازاة من جنس العمل كان بينهما مشابهة أيضاً. حاشية الشهاب ٢٦٨/٤.

(٢) السراج المنير ٢١٩/١، وينظر: النكت والعيون ٣٩٦/١، تفسير البغوي ٤٤٦/١، زاد المسير ٢٨٦/١، تفسير القرطبي ٩٨/٤

(٣) تفسير الماتريدي٣٨٢/٢، النكت والعيون ٣٩٦/١، تفسير البغوي ٤٤٥/١، تفسير البيضاوي ١٩/٢، تفسير النسفي١/ ٢٥٨.

(٤) التفسير الوسيط للواحدي٤٠٢/٢، تفسير الخازن ٢٤٢/٢

(٥) مفاتيح الغيب ٣٤٨/١٤، تفسير الخازن ٢٤٢/٢

(٦) السراج المنير ٥٠٩/١، وينظر: مفاتيح الغيب ٣٤٨/١٤، تفسير الخازن ٢٤٢/٢

النقمة: هي السطوة والتسلط[١]. وهي بهذا المعنى لا تجوز على الله تعالى، ومن هنا فقد فسرها الخطيب الشربين بالمكافأة على العقوبة؛ قال الراغب الأصفهاني: "النِّقْمَةُ والنَّقْمَةُ والنَّقِمَة: المُكافَأَةُ بالعُقوبَة"[٢].

ما يشعر بالسخط:

السَّخَطُ والسُّخْطُ: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة. وهو من الله تعالى: إنزال العقوبة[٣]. وقد نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله تعالى– منهج الخلف في تفسير السخط، فقال في –تفسير قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ٨٠] –:" ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: غضب عليهم[٤]. ﴿ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ أي: دائماً"[٥].

أول الخطيب الشربيني –رحمه الله– السخط في الآية بالغضب، والمراد به إنزال العقوبة. وقدره بعض المفسرين على حذف مضاف قبله، وإقامة المضاف إليه مقامه، تنبيهاً على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد؛ أي: موجب سخط الله؛ لأن نفس سخط الباري –باعتبار إضافته إليه– ليس مذموماً، بل المذموم ما أوجبه من الأسباب[٦].

ما يشعر بالخداع:

نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج الخلف في تأويل ما يشعر بنسبة

(١) روح المعاني ٧٦/٢.
(٢) مفردات غريب القرآن ص ٧٧٢، بصائر ذوي التمييز ١١٦/٥.
(٣) مفردات غريب القرآن ص ٤٠٢.
(٤) تفسير البغوي ٧٣/٢.
(٥) السراج المنير ٣٩٠/٣.
(٦) الكشاف ٦٦٧/١، تفسير البيضاوي ١٣٩/٢، تفسير أبي السعود ٧٠/٣، حاشية الشهاب ٢٧١/٣، روح المعاني ٣٧٧/٣.

الخداع إلى الله تعالى، تأويلاً يليق بجلال الله تعالى، ومن ذلك قوله –في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ ﴾ [البقرة: ٩]: "﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إذ أظهروا خلاف ما أبطنوه من الكفر؛ ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية، ويحقنوا دماءهم، ويحفظوا أموالهم. وأصل الخدع في اللغة: الاخفاء، ومنه المخدع للبيت الذي يخفى فيه المتاع، فالمخادع أظهر خلاف ما يضمر[١]. والمخادعة تكون بين اثنين. وخداعهم مع الله ليس على ظاهره؛ لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد؛ إمّا مخادعة رسوله، أو أوليائه على حذف المضاف[٢]؛ لأنهم لم يعتقدوا أنّ الله بعث الرسول إليهم، فلم يكن قصدهم –في نفاقهم– مخادعة الله تعالى، فعلم أنّ خداعهم مع الله ليس المراد ظاهره، كما في قوله تعالى:﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلها، أو على أنّ معاملة الرسول معاملة الله تعالى، من حيث إنه خليفته؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء: ٨٠]﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠] [٣]. وإمّا أنّ صورة صنيعهم مع الله تعالى، من إظهار الإيمان، واستبطان الكفر، وصنيع الله معهم، من إجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبث الكفار، وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم[٤]. وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام، مجاراة لهم بمثل صنيعهم، صورة صنيع المتخادعين[٥].

(١) تفسير البغوي ٨٧/١، الكشاف ٥٧/١، البحر المحيط٩٣/١، تفسير الجلالين١٢٨/١.
(٢) وهذا القول مروي عن الحسن. المحرر الوجيز ٩٠/١، مفاتيح الغيب ٣٠٣/٢، البحر المحيط ٩٣/١. أوقع أوقع الفعل على غير ما يوقع عليه للملابسة بينهما، وهي الخلافة فهناك مجاز عقلي في النسبة الإيقاعية وهذا ظاهر على رأي من يكتفي بالملابسة بين ما هو له وغير ما هو له، وأما على رأي من يعتبر ملابسة الفعل بغير ما هو له بأن يكون من معمولاته فلا. روح المعاني ١/ ١٤٨.
(٣) تفسير الماتريدي ٣٨٣/٣، النكت والعيون ٧٣/١، مفاتيح الغيب ٣٠٣/٢، تفسير القرطبي ١٩٥/١، تفسير البيضاوي ٤٤/١، تفسير النسفي ٤٨/١، تفسير الخازن ٢٧/١، روح المعاني١٦٨/٣
(٤) الكشاف٥٧/١، المحرر الوجيز ٩٠/١، مفاتيح الغيب ٣٠٣/٢، تفسير القرطبي١٩٦/١، تفسير البيضاوي البيضاوي ٤٤/١، تفسير الخازن ٢٧/١
(٥) السراج المنير٢٢/١، ٢٣، وينظر: الكشاف٥٧/١، المحرر الوجيز ٩٠/١، مفاتيح الغيب ٣٠٣/٢، تفسير تفسير البيضاوي ٤٤/١، روح المعاني١٤٨/١، ففي الكلام إما استعارة تبعية في يُخادِعُونَ وحده أو تمثيلية في الجملة. روح المعاني ١٤٨/١.

الخِدَاع: إنزال الغير عمّا هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه[١] ولا شبهة في أن الخديعة مذمومة، ولا تجوز على الله تعالى؛ ولهذا فقد أول الخطيب الشربيني مخادعة الله، كما أوله جمهور المفسرين؛ لأن مخادعة الله تعالى ممتنعة؛ لأنه تعالى يعلم الضمائر والسرائر، فلا يجوز أن يخادع، ولأن المنافقين لم يعتقدوا أن الله بعث الرسول إليهم، فلم يكن قصدهم في نفاقهم مخادعة الله تعالى، فثبت أنه لا يمكن إجراء هذا اللفظ على ظاهره، بل لا بد من التأويل[٢].

ما يشعر بالكيد:

وقد سار الخطيب الشربيني –رحمه الله– على منهج الخلف في تأويل الكيد تأويلاً يليق بجلال الله تعالى، فقال –في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ ﴾ [الطارق: ١٦] فقال –رحمه الله–:" ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار أعداء الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه. واختلف في ذلك الكيد، فقيل: إلقاء الشبهات؛ كقولهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الأنعام: ٢٩] ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ ﴾ [يس: ٧٨] ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ ﴾ [ص: ٥] وما أشبه ذلك[٣]. وقيل: قصدهم قتله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية[٤]. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَكِيدُ﴾ أي: أنا بإتمام اقتداري ﴿كَيْدًا﴾ فاختلف فيه أيضاً، فقيل: معناه أجازيهم جزاء كيدهم[٥]. وقيل: هو ما أوقع الله تعالى بهم يوم بدر من القتل والأسر[٦]. وقيل: وقيل: استدراجهم من حيث لا يعلمون[٧]. وقيل: كيد الله تعالى لهم بنصره وإعلاء

(١) مفردات الراغب ص ٢٧٦، بصائر ذوي التمييز ٥٢٩/٢.
(٢) مفاتيح الغيب ٣٠٣/٢.
(٣) مفاتيح الغيب ١٢٣/٣١.
(٤) مفاتيح الغيب ١٢٣/٣١، تفسير القرطبي ١١/٢٠.
(٥) تفسير الماتريدي ٤٩٨/١٠، زاد المسير ٤٣٠/٤، تفسير القرطبي ١١/٢٠، تفسير النسفي ٦٢٩/٣
(٦) تفسير القرطبي ١١/٢٠.
(٧) التفسير الوسيط للواحدي ٤٦٧/٤، تفسير البغوي ٢٤٠/٥، زاد المسير ٤٣٠/٤، تفسير القرطبي ١١/٢٠، تفسير البيضاوي ٣٠٤/٥، تفسير النسفي ٦٢٩/٣، تفسير الخازن ٤١٦/٤، تفسير الجلالين ص ٨٠٣، تفسير أبي السعود ١٤٢/٩، روح المعاني ١٥/ ٣١٢.

درجته، تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى: ٤٠] وقول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النساء: ١٤٢]"[(١)].

الْكَيْدُ: ضرب من الاحتيال. وهو محال على الله؛ ولهذا فقد أول الخطيب الشربيني الكيد بما يتوافق مع مذهب الخلف من التأويل الذي يليق بجلال الله تعالى، ونقل أقوال المفسرين في ذلك؛ فمنهم من قال: المراد: أجازيهم جزاء كيدهم. ومنهم من قال: هو ما أوقعه الله تعالى بهم يوم بدر من القتل والأسر. ومنهم من قال: هو استدراجهم من حيث لا يعلمون. ومنهم من قال: هو تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر. وجميع المعاني حسنة ومقبول؛ يقول الراغب الأصفهاني: "الْكَيْدُ: ضرب من الاحتيال. وهو محال على الله، وإذا أطلق في حق الله يكون بمعنى الإملاء والإمهال، المؤدّي إلى العقاب[(٢)].

(١) السراج المنير ٥١٩/٤، وينظر: تفسير الماتريدي٤٩٨/١٠، مفاتيح الغيب ١٢٣/٣١.
(٢) مفردات غريب القرآن ص ٧٢٨، تفسير البغوي ٧١٤/١.

الخاتمة

أهم النتائج، والتوصيات المستخلصة من هذا البحث

أهم النتائج:

أولاً: قضية النصوص الموهمة للتشبيه قضية متجددة الطرح، لها جذورها التاريخية، وحضورها المعاصر، وهي قضية هامة وخطيرة، من قضايا الفكر والثقافة الإسلامية على مر العصور، يجب معالجتها ودراستها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، بفهم أعلام الأمة من السلف والخلف.

ثانياً: التعلق بظواهر الآيات الموهمة للتشبيه، يوقع في التجسيم والتشبيه.

ثالثاً: مذهب أهل السنة وجوب صرف الآيات الموهمة للتشبيه عن ظواهرها، وتنزيهه تعالى عن مشابهة خلقه، فأما السلف فيكتفون بصرف هذه الآيات عن ظواهرها، والإيمان بها، وإمرارها–من غير تفسير– وتفويض المعنى المراد منها إلى الله تعالى. وأما الخلف فإنَّهم يؤولونها تأويلاً يليق بجلال الله تعالى، وعلى ذلك جل المفسرين.

رابعاً: نهج الخطيب الشربيني –رحمه الله– منهج الخلف في تأويل الآيات الموهمة للتشبيه، تأويلاً يليق بجلال الله تعالى. وهو كذلك مذهب جل المفسرين.

خامساً: المنهج الأشعري ليس بدعاً، وإنما هو امتداد لمنهج السلف الصالح ﷺ.

سادساً: الأزهر الشريف هو حصن الدين المنيع على مر العصور، وقد واصل علماؤه منهج أعلام الأمة؛ من أهل السنة والجماعة، في إيضاح عقائد السلف، وتأييدها بالأدلة العقلية والنقلية، ودفع الشبه عنها بأسلوب يناسب العصر، وما فيه من التحديات.

سابعاً: محاولة فرض الرأي الواحد على جميع الناس، خطر يؤدي إلى تمزيق الأمة.

أهم التوصيات:

أولاً: إنشاء موقع على شبكة الانترنت للأزهر الشريف للتعريف بالمنهج الأشعري، وإظهاره بصورته الصحيحة، وأنه ليس بدعاً، وإنما هو امتداد لمذهب السلف الصالح.

ثانياً: تكليف لجنة من أساتذة التفسير وعلوم القرآن، والعقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر بإعداد تفسير للآيات الموهمة للتشبيه، تحت إشراف اللجنة العلمية بقسم التفسير، وتحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر (حفظه الله).

ثالثاً: أن يضاف إلى المقررات الدراسية بجامعة الأزهر مقرر لتفسير الآيات الموهمة للتشبيه، على غرار مقرر تفسير الآيات الأحكام.

رابعاً: أن تُعنى المؤسسات الدينية والتعليمية –وعلى رأسها الأزهر الشريف– بتفعيل أدب الاختلاف، ونشر ثقافة الحوار في المجتمع، وبث ثقافة قبول الآخر.

أهم المراجع

١. الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. لأبي السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣. الإرشاد إلى قواطع الأدلة لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ت ٤٧٨هـ. المكتبة الثقافية الدينية. الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ– ٢٠٠٩م.

٤. الأسماء والصفات للإمام البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي. مكتبة السوادي، جدة. الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ .

٦. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون إسماعيل باشا البغدادي (المتوفى: ١٣٩٩هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٧. بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ).

٨. البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي. تحقيق صدقي محمد جميل. دار الفكر – بيروت. الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) المحقق: محمد علي النجار. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

١٠. تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي. تحقيق د. مجدي باسلوم. دار

الكتب العلمية – بيروت، لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

١١. تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.

١٢. تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي. مذيل بحاشية الكشاف للزمخشري. دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

١٣. التسهيل في علوم التنزيل للكلبي. تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ.

١٤. تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). دار الحديث القاهرة. الطبعة: الأولى.

١٥. تفسير الراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني آخرون. الناشر: كلية الآداب. جامعة طنطا. الطبعة الأولى. ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م.

١٦. تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير. تحقيق سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.

١٧. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

١٨. جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري تحقيق أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

١٩. حَاشِيةُ الشِّهَابِ الخفاجي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي. (المتوفى: ١٠٦٩هـ) دار صادر – بيروت.

٢٠. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحب الدين الحموي. مكتبة خياط. بيروت.

٢١. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط. دار القلم، دمشق.

٢٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي. دار الفكر – بيروت.

٢٣. دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي. تحقيق محمد زاهد الكوثري. المكتبة الأزهرية للتراث.

٢٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. لشهاب الدين الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) تحقيق علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢٥. زاد المسير إلى علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي. دار الكتاب العربي بيروت. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٦. السبعة في القراءات لابن مجاهد البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ) تحقيق شوقي ضيف الناشر: دار المعارف – مصر الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٢٧. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، (المتوفى: ١٠٨٩هـ) تحقيق محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير، دمشق – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

٢٨. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني (المتوفى: ٩٧٧هـ) مطبعة بولاق– القاهرة. ١٢٨٥ هـ.

٢٩. شرح السنة لمحيي السنة، البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش. المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٣٠. شرح المقاصد في علم الكلام لسعد الين التفتازاني. دار المعرفة النعمانية. باكستان. ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

٣١. صحيح الإمام البخاري. دار طوق النجاة. ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢. صحيح الإمام مسلم بشرح النووي. دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

٣٣. غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ) تحقيق الشيخ زكريا عميرات. دار الكتب العلميه – بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤١٦هـ .

٣٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لجار الله الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

٣٥. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (المتوفى: ١٠٦٧هـ) مكتبة المثنى – بغداد.١٩٤١م.

٣٦. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين محمد بن محمد الغزي (المتوفى: ١٠٦١هـ) المحقق: خليل المنصور. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

٣٧. لباب التأويل في معاني التنزيل. لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ) تحقيق تصحيح محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

٣٨. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ) تحقيق حسام الدين القدسي. الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة. عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

٣٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ.

٤٠. مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ) تحقيق يوسف علي بديوي. دار الكلم الطيب، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٤١. مسند الإمام أحمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ) تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٤٢. معالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ) تحقيق عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي –بيروت. الطبعة: الأولى ، ١٤٢٠ هـ.

٤٣. معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة (المتوفى: ١٤٠٨هـ) مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٤٤. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للإمام الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٤٥. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) تحقيق صفوان عدنان الداودي. دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

٤٦. المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي. عالم الكتب بيروت.

٤٧. النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

٤٨. نهاية المبتدئين أفي أصول الدين لابن حمدان الحنبلي. تحقيق الدكتور ناصر بن سعود السلامة نشر دار الرشد.

٤٩. الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن النيسابوري (المتوفى: ٤٦٨هـ) تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عويس وآخرون. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.